

أبريل 2015

406

الأب

رواية

تأليف: يورج أكلين

ترجمها عن اللغة الألمانية: د. عبدالحميد حسين

مراجعة: أ. د. أسامة أبو طالب

الأب



الأب

رواية

تـــألـــيـــف: يورج أكلين

ترجمها عن اللغة الألمانية: د. عبدالحميد حسين

مـــراجـــعـــة: أ. د. أسامة أبو طالب



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.nccal.gov.kw

ebdaat_alamia@nccal.gov.kw

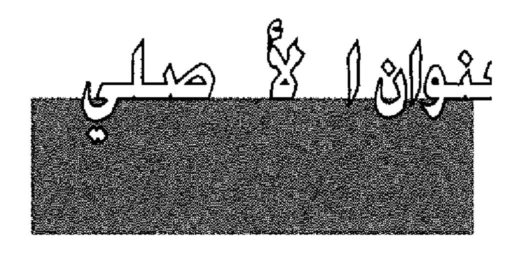
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-450-4

رقم الإيداع: 213/2015

• الأب

رواية



Jürg Acklin

DER VATER

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2015م

إبداعات عالمية - العدد 406

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1923 - 1990)

مقدمة

(1)

لمحة عن الأدب السويسري المعاصر:

سويسرا هي واحدة من أكثر بلاد العالم ثراء، ثرية أيضا بتعددها الثقافي واللغوي، ففيها أربع لغات رسمية هي الألمانية ويتكلمها حوالي 72 % من السكان، تليها الفرنسية، ثم الإيطالية، واللغة الروتورومانية التي تعود أصولها إلى العصر الروماني واللغة اللاتينية.

ومن المعروف أن مصطلح «الأدب الألماني» يعني الأدب المكتوب باللغة الألمانية، ولا يشمل هذا فقط جمهورية ألمانيا الاتحادية، وإنما أيضا سويسرا والنمسا.. فجزء كبير من الأدب في سويسرا مكتوب باللغة الألمانية.

ولسويسرا وكتابها مساهمات لا يمكن إنكارها في الأدب الألماني، وذلك منذ البدايات، فشهرة هذا الأدب (السويسري) تعدت حدود سويسرا الإقليمية، ونالت شهرة عالمية كبيرة على يد ماكس فريش (1911 – 1991) وفريدريش دورينمات (1921 – 1990).. والمكتبة العربية تعرف هذين الكاتبين منذ ستينيات القرن الماضي، فلهما ترجمات عديدة إلى اللغة العربية، لكن مصطلح (الأدب السويسري) جاء لاحقا وتبلور على يد الجيل التالي لدورينمات وفريش. هذا الجيل من الأدباء والكتاب على سبيل المثال لا الحصر، بيتر بيكسل (1935)، هرمان بورجر (1942 – 1989)، أويجن جومرينجر (1925)، أدولف موشج

(1924)، أورز فيدمـر (1938 - 2014)، تومـاس هورليمـان (1950)، يـورج أكلـين (1945)، مارتـن سـوتر (1948)، ميلينـا موزر (1963)، باول نيتسـون (1929)، بيتر فيبر (1968). رغم ذلك هناك أدباء سويسريون مشهورون لا يعرفهم القارئ العربي، أهمهـم روبرت فالـزر (1878 - 1956)، تم الاهتمام بإنتاج هذا الأديب في سـبعينيات القرن الماضي، ومن أهـم أعماله، «الوردة»، «الإخـوة تانـر»، «حـدث ذات يـوم»، «اللـص» وغيرها من الأشـعار والرسائل الأدبية.

إن مؤلفات روبرت فالزر التي تنتمي إلى المذهب الواقعي كانت في الحقيقة الأساس لمصطلح الأدب السويسري، وينبغي أن نشير إلى أن هناك أديبين شـهيرين حصلا على جائزة نوبل في الأدب هما في الأصل سويسريان: كارل شبيتلر (1845 - 1924)، وقد حصـل على جائزة نوبـل في الأدب عـام 1919، والثاني هيرمان هيسه (1877 - 1962)، وحصل على جائزة نوبل في الأدب عام 1946.

يرى كثير من النقاد أن الواقعية هي التيار السائد في الرواية السويسـرية الجديدة، فما بين الواقعية السيكولوجية والواقعية الفلسـفية تأتي أعمال كثير من الأدباء السويسريين المعاصرين، فالاهتمام المفرط بتصوير الواقع بكل تفاصيله وكذلك التعامل مـع الماضـي هما قضيتـان ذواتا أهميـة بالغة فـي الأدب المكتوب باللغة الألمانية بشكل عام.

من القضايا التي تهم الأدباء في المجتمع السويسري المعاصر، والتـي يكتبون عنها، الخـوف والموت والوحـدة والعزلة، وعلاقات

الرجل والمرأة، والحب والعجز والشيخوخة والضعف الإنساني، وهي قضايا إنسانية بحتة تهم الأدباء في كل مكان.

(2)

التعريف بالكاتب وأعماله:

ولد يورج أكلين في 20 فبراير 1945 في بلدة كوزناخت، والتي تطل على بحيرة زيوريخ، لأب يعمل مهندسا، ودرس العلوم الاجتماعية بجامعة بريمن بألمانيا، وكانت رسالته للدكتوراه عام 1974 عن فيلهلم فايتلينج (1808 – 1871)، والذي يعتبر أول منظر ألماني للشيوعية.

عمل أكلين بعد تخرجه معلما، واشترك في تجارب مدرسية حديثة مبتكرة بسويسرا في محاولة إصلاح تربوية في المدارس السويسرية، وقاد حركة الإصلاح هذه لعدد من الأعوام قبل أن تهاجمه المؤسسات التربوية، وقد أثارت هذه القضية كثيرا من ردود الفعل في الرأي العام السويسري.

عمل يورج أكلين كذلك كمقدم برامج في التليفزيون السويسري، وكان له برنامج عن الفلسفة وبرنامج شهير أيضا بعنوان «نادي الأدب»، والذي كان يستضيف فيه كثيرا من المفكرين والأدباء.

ويعمل أكلين حاليا كمحلل نفساني في عيادته الخاصة في مدينة زيوريخ.

وقد حاز على عدد من الجوائز الأدبية في ألمانيا وسويسرا،

منها جائزة فرديناند ماير وجائزة تسوليكر للفن عن مجمل أعماله الأدبية، وجائزة مدينة زيوريخ للكتاب.

من مؤلفات أكلين:

1 - «الحالم الوحيد» - ديوان شعر 1967

2 - «ميخائيل هوبتلي» - رواية 1969

3 - «إلياس» - نصوص أدبية 1971

4 - «صعود المنطاد» - رواية 1980

5 - «رجل الكانجرو» - رواية 1992

6 - «زوجا التانجو» - رواية 1994

7 - «أغنية الضفدع» - رواية 1996

8 - «الأب» - رواية 1998

9 - «معيب» - رواية 2002

10 - «الثقة شيء طيب» - رواية 2009

ينتمي أكلين إلى النخبة السويسرية التي تمثل اليسار الليبرالي، فهو يعبر في رواياته عن أزمة الإنسان المعاصر والاغتراب والانكفاء على الذات الذي يعاني منه الفرد في أوروبا اليوم. وتصف أعماله بشكل واقعي العلاقات الإنسانية والأزمات بين الأشخاص والنزاعات وصراعات الأجيال.. وهو يعبر عن ذلك بشكل مبدع ومؤثر وقاس، وأعماله لا تخلو من ملامح العبث، لكنها تعتبر ككثير من أبناء جيله تجسيدا للتيار الواقعي في الرواية السويسرية الجديدة.

تعتبر رواية «الأب» تسوية حساب الابن مع أبيه عبر رحلة في ذاكرة الابن الذي يقوم بدراسة عائلية بعين محلل نفساني.

تطـرح الروايــة التي لا تخلو من ملامح السـيرة الذاتية العلاقة بين الأب والابن، وموضوع الشـيخوخة والمـرض والعجز، وكذلك وصف لمواقف الأب وسلوكه في حياته مع أسرته وابنه بالذات.

يعالج أكلين بأسـلوبه الساخر التهكمي ولغته التي تميل إلى لغـة كتّاب مسـرح العبـث قضايا إنسـانية واقعية خطيـرة يعاني منها المجتمع المعاصر، منها قضية التصالح مع الذات ومواجهة الماضـي، ومحاولـة التغلب عليه، لكن هذه القضايا هي إنسـانية خالـدة فـي المقـام الأول، تشـغل وتهم الإنسـان فـي كل العصور، وليس بالضرورة أن يجد الكاتب المعاصر لها حلا.

يقتحـم المؤلـف نفسـية الابـن ويتوغـل فيها، يتذكـر ويحلل ويناقـش وينقـد سـلوك الأب. يقـول أحد النقاد عنـه: «إن أكلين يكتـب نثـرا موجعا، يتميـز بالجرأة الشـديدة والقاسـية كما أن لديه القدرة على التعبير عن مكنون نفسه وتعرية ذوات الآخرين دون خوف أو مواربة أو نظر للعواقب».

تأثير إبسـن واضح فـي الرواية وكذلك سـتريندبرج، فهو أول من وظف التيار النفسي في الأدب، ومسرحياته تتوغل في العقل الباطـن، لكن التأثير الأكبر كان تأثير كافكا في رسـالته «رسـالة إلـى الأب»، هـذا التأثير لا يمكن إنكاره، فقد قـدم كافكا نموذجا للعلاقـة بين الأب والابن، قلده وتأثـر به الكثير من الأدباء حتـى اليـوم، فهو يرى صورة الأب كطاغية مسـتبد يفعل ما هو مقتنـع به. إن هناك ملامح مشتركة ما بين كافكا وأكلين، فكلاهما حياته مليئة بالحزن والتعاسة والمعاناة على مستوى الأسرة.

يعتـرف المؤلـف بأن كثيرا من ملامح الأب فـي روايته هي عن

أبيـه نفسـه، كمـا أن للمؤلـف أخـا معاقـا، فهو يكتب عـن خبرة شـخصية بحتة، وهو يحاول قدر جهده استكشاف خبايا وخفايا النفـس البشـرية، وهو خلال ذلـك ينزع في بعـض الأحيان إلى التناقض ويميل إلى المبالغة.

تتميـز نصـوص أكلـين بوصـف مكثـف ودقيـق لسـلوك الشـخصيات، ويقول المؤلف إن الكتابة تعلمه التغلب على خوفه الذاتـي، أمـا مخاوف الآخرين فهو يعالجها فـي عيادته الخاصة كمحلـل نفسـاني، وهو يرى أن الخوف هـو أثقل عبء على كاهل الإنسان.

يجيـب أكلـين عن السـؤال: «لماذا تكتـب عـن الأب؟»، «إن الأب الذي يتقدم في العمر، هذا الأب القدوة تهتز صورته بعنف وقوة عندمـا يصير ضعيفا وعاجزا.. هـذا الأب الذي كان طوال عمره شـخصا قويا يحتاج الآخرون إلى حمايته، هو الآن الذي يحتاج الحماية».

ورغم أن المؤلف يتناول الموضوع بشـيء من القسوة، لكنه يرى فـي ذلك نوعـا من أنواع المصالحة مع الأب، فهـو يقول عن أبيه: «إن لديّ خوفا دائما من أنني لا أستطيع فعل شيء بشكل أفضل مما فعله أبي».

إن المؤلف يحب أباه، ولكن تعبيره عن هذا الحب يختلف عمّا نعرفـه نحن الشـرقيين، فهو ينتقـده ويحفر فـي ماضيه، ويظهر عيوبـه، ويذكـر أنه كان يقـول له ذلك أثناء حياتـه، وعندما كتب أكلـين الرواية ونشـرها رفض الأب قراءتها، ربمـا لأنه يعرف ابنه ويعرف رأيه فيه.

فالجرأة هي أهم ما يميز المؤلف في الكتابة عن أبيه، فهي أقوى ما يميز الأدب الهادف. إن التعامل مع الماضي والنبش فيه هو محاولة للتغلب عليه، ولربما كان ذلك نوعا من أنواع الندم غير المباشر، والذي يريد الكاتب أن يعبر عنه.

يرى أحد النقاد «أن أكلين يفعل مثل الهنود الحمر الذين يحملون آباءهم عند الموت فوق أكتافهم ويصعدون بهم إلى الجبل كي يدفنوهم هناك. وهذا يذكرنا أيضا بأسطورة إينياس اليونانية الرومانية الشهيرة، حيث يحمل أباه إنخيسيس فوق كتفه ويهرب من طروادة، وإينياس هو أب الرومان في الأساطير كما هو معروف».

يرى الروائي السويسري أدولف موشج أن كتابات أكلين تمثل الواقعية على الطريقة السويسرية، ويرى نقاد آخرون أن روايات أكلين هي خليط بين الواقعية والطبيعية، وبشكل عام تعتبر الواقعية هي التيار السائد في الرواية السويسرية المعاصرة.

في رواية «الأب» يختلف شكل الرواية السردي عن الشكل المألوف من حيث وجود حبكة وبداية ووسط ونهاية لحدث الرواية، فليس في الرواية وحدة الزمن التقليدية، وأحداثها كلها تدور في يوم واحد، وتنتمي إلى التيار المعروف في الرواية الحديثة باسم تيار الوعي الذي يعتبر جيمس جويس خير ممثل له.

المونولوج الداخلي هو التقنية الأهم في الرواية، وهو الأداة الفنية الوحيدة التي يلجأ إليها المؤلف، فهي تشكل العلاقة بين أفكار المؤلف وتدفق الوعي عند الشخصية. إن الأحدث في الرواية

والتي تبدأ من لحظة الخروج من بيت رعاية المسنين حتى انزلاق وسقوط فالتر وموت الأب في النهاية، كل هذه المشاهد تتم في يومٍ واحد، ومعظمها يدور في ذهن بطل الرواية.

(3)

- ثيمة «الأب» في الأدب الأوروبي:

لقد تناول الكتاب الأوروبيون بداية من معالجة أسطورة «أوديب» لسوفوكليس حتى الروائي النمساوي المعاصر أرنو جايجر (1968) في روايته الملك القديم في منفاه (2011) موضوع العلاقة مع الأب.

وكان أشهر من تناول موضوع العلاقة مع الأب في الأدب الحديث هو الكاتب السويدي أوجست ستريندبرج (1849 - 1912) في مسرحيته الشهيرة «الأب»، وفرانز كافكا في «رسالة إلى الأب»، والتي كان لها تأثير كبير للغاية على الأدباء بعده. كذلك عالج توماس مان (1875 - 1955) موضوع الأب في روايته «بودين بروكس» والنمساوي بيتر هاندكه (1942) في قصته «حكاية للأطفال». كذلك أوفه تيم (1940) الروائي الألماني المعاصر في قصته «أخي على سبيل المثال» في عام 2003، والتي يعرض فيها من سيرته الذاتية الكثير، ويطرح موضوع العلاقة بين الأب والابن، أيضا الروائي الألماني فولف فوندراتشيك (1943) في روايته «الهدية».

تعتبر ثيمة الأب ثيمة إنسانية، وفي المجتمع العربي بالذات

يشكل الأب سلطة مطلقة أو شبه مطلقة.. وفي حالة ضعفه ومرضه أو موته تهتز أركان الأسرة إن لم تصب بالانهيار تماما، وهذا الموضوع قريب إلى قلوب كثير من الكتّاب الشرقيين أيضا، فشخصية الأب لا تعترف بالضعف على الإطلاق وترفض العجز.. والأب (الرجل) ولد قويا ويريد أن يموت قويا، وهذا مناف لطبيعة البشر، وهنا يكمن السر الدرامي، وتتولد الجاذبية الأدبية.

د.عبد الحميد حسين

المراجع

Lexikon der Schweizer Literatur, Lenos Verlag, Basel 1991

Bartenschlager Wilhelm, Deutsche Literaturgeschichte, Leitner Verlag, Wien 1992

Pressemappe Juerg Acklin, Verlag Nagel & Kimche, Zuerich

www.wikipedia.org-juerg Acklin

www.bibliomedia.ch-juerg Acklin

Zeitungartikel von und ueber Juerg Acklin, Sueddeutsche Zeitung – Die Zeit, Dezember 2013

Acklin Juerg, Der Vater, Roman, Zuerich 1998

الأب

في ليلةِ الصيف تلك، حمل الابن أباه فوق ظهره. ذلك العنيد، كثير النسيان، العجوز المحاط بالحفاضات، في تلك الليلة من شهر أغسطس، عندما صعد به الجبل، كانت ماكينات الحصاد العملاقة تنتشر بين الحقول، تعمل باستمرار، ولا تتوقف، تقطع ممرات الحبوب بقواطعها ذات الضجيج العالي، محدثة ضجيجا أعلى بمحركاتها عند الاستدارة. العجوز الذي تلاشت قواه، لم يعد حِملا ثقيلا فوق ظهر الابن القوي، كان الثقل في رأسه فقط. هذه الماكينات العملاقة، ماكينات الحصاد، كانت تبحث بكشافات الضوء عن الطريق، عاليا عند المنتجع الصحي، مثل آلات مناطق التزحلق في الليلة الجليدية تحت السماء السوداء.

أما هذه الكائنات من خارج الأرض، والتي تبدو كأنها هبطت للتو من الفضاء، فلم تكن سوى مزارعين يرتدون قبعات أذن مبطنة سميكة، جالسين عاليا فوق المحركات المرتجّة، محدّقين في ضوء الكشافات الساقط على السنابل المائلة. ظهر العرق على جبهة ڤالتر، وتقطّر كمجرى بارد إلى أسفل ظهره، وتجمع قرب حزام البنطال عند مفصل الفخذين. فقط قبل ساعات قليلة، كان قد وجد قصاصة ورقية فوق طاولة المطبخ:«من فضلك.. ضرورة الاتصال بمدير دار الرعاية، إن أباك فقد صوابه، سوف

أقيم بضعة أيام لدى كاترين، علاقتنا لا يمكن أن تستمر بهذا الشكل، مارا». كتابتها العجولة، وكيف كانت الورقة ملقية، حروف اسمها أكبر من الخبر نفسه، شكل الكتابة ترك أثرا غير مريح لديه، طريقة استخدامها للروابط بين حروف الكلمات أشعرته بالحرج، لا يكتب بهذه الطريقة سوى شخص مبتذل، إنها تشاهد التلفاز كثيرا وتكتب القليل جدا.

خطا ڤالتر فوق البلاط، وترددت خطواته، كانت مارا قد ذهبت. كان يسعد في الماضي بوريقاتها الصغيرة، قال لنفسه: لا تفكر كثيرا، انتهى الأمر، إن الأب في حاجة إليّ. أخذ ڤالتر حقيبة الظهر الكبيرة الخاصة به من خزانة الثياب، والتي كان الأب يضع بعض متعلقاته فيها عند الحاجة، وطفق خارجا إلى الشارع.

لعينيه بدت الشمس الغاربة في ضباب المنطقة الصناعية وكأنها قمرٌ ياباني أحمر. ستكون هناك اليوم بالتأكيد عاصفة رعدية، كان مبنى دار الرعاية يشبه من بعيد سفينة ترفيه جانحة، وهيكل البناء فوق بئر المصعد وكأنه مقر قيادتها، والمبنى الخرساني غير المطلي يلمع باللون الأحمر في شمس الغروب. مجموعة أنيقة من الزهور الرائعة، أحواض فيها زهور البيجونيا، وزهور البورتولا الصغيرة، أوان بلاستيكية بيضاء مليئة بزهور البيتونيا البرية.

العشب مقصوص قصيرا كقَصة فرشاة، وأحواض الورود خالية من الأعشاب الضارة. التربة طرية وكأنها باليد مبشورة. كل شيء جاهز للتفتيش في أي وقت، خلف الأبواب الزجاجية التي تغلق أوتوماتيكيا، تشم رائحة قديمة لاذعة، أرضيات لامعة، أبواب

الدخـــول ذات ألواح زجاجية نظيفة. على الجدران بعض لوحات الطباعة الحجرية لكاريجييت: شيلين نورزلي مع جرسه الضخم، كما لو كانوا أطفالا كبار الســـن هؤلاء من النساء والرجال! يسدّ مســـام جلده، ويتنفس فقط من خلال الفم، يريد أن يجعل الموت والوهن بعيدَين عنه. يريد أن يمرّ مهرولا بعيون مغلقة على هذه المومياوات الحية، لكنه في ذات الوقت يحس بانجذاب ســـحري، ينظر بطـــرف عينه إلى داخـــل الغرف، إلى الوجـــوه المحتضرة ذات الأنـــوف المدببة، ينظر خلســـة إلى تجويفـــات العيون البنية الصفراء، يغدو متلصصـــا لحالة الاضمحلال هذه. في الممرات تسود حالة من التذمر والتوبيخ، من القهقهة والشكوى، من الغناء والهمهمة. في الطابق الأول تشـــم رائحة دخان نفاذة، كما لو أن أحدا قد قام بشـــيٍّ نقانق فـــي الهواء الطلق. في برك المياه على الأرض تنعكس أشـــعة الشمس الأخيرة المنحدرة، كانت الأرضية البلاســـتيك في الأمام قد غمرتها الميـــاه، وخرطوم إطفاء مُلقى متعرجا على الأرض وكأنه أفعى ضخمة ميتة، والمياه تتسرب من صمامه الألومنيوم. صاح ڤالتر في الممرضة المهرولة:

- ما الذي يجري هنا؟

- إنه حريق.

- أين؟

- في غرفة 209.

إنها غرفة أبيه.

كانوا قد نقلوا المشاكس العجوز إلى نهاية الممر، حيث لا ينتبه إليه أحد علـــى الأقل عندما يصرخ حوله. ركـــض ڤالتر، والمياه تتسرب يمينا ويسارا تحت نعلي حذائه.

- توقف!

أوقفه رجل شرطة.

- أنا أبحث عن أبي.

- أين هو؟

الغرفـة المركزية كانت مزدحمة بالنـاس، ممرضات، عاملون في مجال الرعاية، اثنان من رجال الإطفاء، شرطي، مدير الدار، وأبوه على كرسيه المتحرك. شكله يبدو على ما يرام، الوجه يبدو مسودا، الشعرات القليلة المنكوشة يبدو بها حرق طفيف، محلوقة من السـخونة وكأنهم قاموا بكي شعره، لكن تعبيرات وجهه بدت جريئـة، التقت نظراتهما، حينهـا لمعت عيناه بخبث. لا يمكن أن تحصل منه على أي شيء، قال مدير الدار:

- تصور ماذا كان ممكن أن يحدث! دار ممتلئة بكبار السـن، منهـم من هو غير قادر على المشـي، كارثـة كانت من الممكن أن تحـدث. لقد احترقت الغرفـة تماما؛ إنه فعـل ذلك عن عمد، أسـتطيع أن أؤكد لك هـذا، أنا أعرف والـدك، إنه يذهب إلى أقصـى الحدود، لو لم يتعامل رجـال إطفاء الدار مع الأمر على وجه السـرعة ما كنا قد تمكنا من إنقـاذه في آخر لحظة؛ لقد أضرم النار متعمدا، الآن يعتبر الأمر منتهيا، وسوف يتم نقله إلى قسم الطب النفسي.

وضع ڤالتر يـده على كتف أبيه، كان هناك القليل من اللحم، ومن خـلال البدلة الرياضية الرقيقـة ذات اللون البني الداكن، أحس فقط بالجلد الدافئ فوق عظام الكتف. صار الأب منكمشا، شكل جسده جعل ڤالتر يفكر في دجاجة تم نتف ريشها.

- لقد كنت محظوظا يا أبي، الحروق لا تستحق الذكر، فقط

احمرار خفيف، وبعض الشعرات المتجعدة، ألا تريد أن تقول لي ماذا حدث، سيكون الأمر أسهل بكثير.

لكن العجوز لم ينطق، احتفظ بشفتيه مضغوطتين، كان صعبا تحديد فمه ما بين شعيرات لحيته البيضاء القصيرة، كان عنيدا مثل ذكر ماعز.

- هل حقا فعلت ذلك متعمدا؟

فكّر ڤالتر.

- هل لعبت بالنار؟ هل تأملت الشمعة فقط في البداية؟ ورأيت كيف كان لهيبها يرقص حول الفتيل، ربما نفخت فيها قليلا؟ ورأيت كيف تراوغ شعلة اللهب نفخة الهواء؟ وكيف تتمايل هامسة إلى الجانب؟ هل أسقطت الشمعة بحركة طائشة؟ وبدأت ورقة الجريدة في الاشتعال؟ وبقيت أنت تشاهد، كيف أن حافة الورقة تحولت إلى اللون البني مكونة نصف دائرة صغيرة؟ وكيف تراقص فجأة لهب أصفر يميل إلى البياض وعادت الورقة بسهولة إلى وضعها الطبيعي؟ وكيف اشتعلت النار فجأة؟ ربما لم يحدث شيء في المرة الأولى، والورقة المتفحمة تنهار على نفسها وتسقط ثانية فوق الطاولة، وتتكمش قبل أن تتحول إلى بقايا «سخام».

كل ذلك كان ولا يزال مجرد لعب وحسب؟ هل نفخت فيها وعاد الجمر يشتعل من جديد؟ أم وضعت ورقة أخرى فوق الشمعة؛ ولما اشتدت السخونة اضطررت فجأة لتركها تسقط فوق الطاولة؟ لقد امتدت النار والتهمت ورقات أخرى للجريدة، كان مفرش الطاولة محروقا في ذلك الحين، ثم جلست أنت مثل باحث تشاهد ماذا يحدث مشدودا وفجأة اشتعلت النار

بالستارة، واشتدت السخونة، وعندما خطفت الحرارة أنفاسك، دفعت نفسك بعيدا عن الطاولة بكرسيك المتحرك ورجعت إلى الخلف قليلا. هل صحت؟ هل صرخت؟ ماذا فعلت؟ كيف وجدوك؟ كلا، كان ينبغي عليك ألا تصرخ، كانت الممرضة فقط تريد إعداد السرير للمساء، وعند فتح الباب بدأت النار في الاشتعال بسبب تيار الهواء.

كنت تأكل وأنت تسعل على المائدة، كان على الممرضة أن تُخرجك بكرسيك وتوصد الباب خلفها.

سوداء صارت الغرفة ولون دهان السقف أصبح محترقا وجانب من الطاولة متفحم، ظهرت الفقاقيع على طلائها الأصفر، وبدا شكله مثل جبن الراكليت. كل شيء به بخار، ورائحة دخان رطب كريهة تفوح من المكان. كانت تُذّكر ڤالتر بالمزارع المحروقة التي كان يراها بالقرى في نزهات الأحد وهو طفل. لقد انتزعته رؤية البقايا السوداء في الأسقف المتموجة من المزاج الجميل، وجعلته يتوقف برهة قصيرة غارقا في أفكاره، لقد تخيل أن المبنى تحول إلى لهب ونيران مشتعلة. وانعكست النار في عيون الناس المحيطة بالمكان، بينما كانت الماشية تخور في الحظائر، وطفل يختنق في مهده.

- لقد احترقت الغرفة رقم 209 تماما، أبي لم يعد بإمكانه العودة، مقر إقامته الأخير صار حفرة سوداء كريهة الرائحة. لقد كان مدير الدار على حق، لقد فعلتَ ذلك متعمدا، إنني أعرفك، عندما كنت تشعر بالظلم، كنت تدافع عن نفسك، كنت تنتقم دائما، لقد كان ذلك جزءا من شخصيتك؛ عندما كنت تتلقى غرامة لا مبرر لها بخصوص ركن السيارة؛ كنت تسرق

بنفس قيمة الغرامة زهورا في شتاد بارك، أو كنت تحطم بمفك البراغي بسكين الجيب الذي تحمله دائما لوحا زجاجيا في ماكينة موقف السيارات. عندها فقط كنت تشعر بالراحة. لم تسقط الشمعة بسهولة من تلقاء نفسها، من خلال حركة خرقاء. كلاّ، لقد أضرمت النار في حجرتك متعمدا، كنت تريد أن تنتقم: «عندما أموت ذات يوم، يجب أن يموت البعض معي»، كنت تكرر ذلك دوما، لقد ظللت مخلصا لذاتك، نهاية قوية، وكنت تأخذ موتك في الاعتبار، من أجل ذلك ترى سفينة الترفيه الجانحة تضيء في توهج الحريق، وفي الطوابق خيالات ظل لأشخاص شاردة، شيء خطير كان حدوثه جائزا لكبار السن هؤلاء من النساءِ والرجال.

كانَ الرعب الكبير سيصبح سيد الموقف، بعد اليوم لن يكون هناكَ انتظار ممل للموت. لقد صرت يا أبي العزيز في أيام عمرك الأخيرة مشعلا للحرائق، كنتَ تريد طوال الوقت حمايتيَ منها وأنا طفل. لقد تحملت المخاوف بسبب ذلك، وتملكك الرعب، عندما سمعت أنني لعبت سرا بأعواد الثقاب الصغيرة وقد سقط واحد منها متفحم على الأرضية الخشبية، ولأنك كنت تريد أن تمنع ذلك وللأبد، وتريد أن أشعر بذلك في جسدي، وكيف أنه كان شيئا خطيرا، فقد أخذت إصبعي السبابة الصغير ووضعته فوق شمعة مشتعلة، حتى صرخت، وتكونت فقاعة بإصبعي الصغير وتدخلت الأم.

بعدها لم تشعر حتى بالخجل، كنت تحس أنك على حق، لم تكن ساديا؛ كان الأمر بالنسبة لك يتعلق بالمبدأ فحسب. لأنك كنت تريد حمايتي من الأسوأ، وهذا الأسوأ كان طفلا محروقا

في مسـكن محترق. حياة محطمة، كنت لا تستطيع تحمل رعبك عندمـا ترى بقايا لحم ابنك المحـروق في نعش الطفل الأبيض. كان عليك أن تفعل شيئا، والآن، هل أقوم بمسك إصبعك الضامر وأضعه فوق شـمعة مشـتعلة كذلك؟ هل أطلـب ولّاعة غاز من ممـرض، وآخذ يدك؟ أنت أيضا لن يمكنك الدفاع عن نفسـك، سـوف أمسـك يدك، الجافة، المليئة بالجلد الهزيل، يد العجوز الممتدة، وبحذر سـآخذ إصبعا منهـا، وأضعها فوق اللهب، حتى تئن، وحتى تتكون فقاعات بجلدك الجاف المتشقق، بعدها سأقوم بغمـس إصبعك في كوب جاهز من المـاء، لأنه في نهاية المطاف لا ينبغي أن تحس بمعاناة لا داعي لها.

لم يكن ذلك غير مثال للردع والتخويف، والآن سـوف أصيح، يـا مدير الدار، يمكنك الاحتفاظ به، فهو لن يشـعل غرفته بعد الآن، أنـا أضمن لك ذلـك، أبي لا يريد أن تكون له علاقة بالنار بعـد اليوم. لكـن الواقع بدا مختلفا، اليوم يجـب أن ننقله، قال المدير هذا بتعبيرات وجه وكأن الحق في جانبه. إن أباك بالفعل خطر علـى الجميع، كل الموجودين كانوا مـن الممكن أن يموتوا، يختنقـوا في الأسـرّة أو يُحرقوا «يختنقـوا أو يُحرقوا»، كررتها تلقائيا امرأة عجوز ذات جمجمة شـبه صلعاء وحاجبين أسودين كثيفين. «يختنقوا في الأسـرّة أو يُحرقوا»، كررتها العجوز مرارا، لقـد كان الأب حقـودا ولقد عذبنا كثيرا، أنـت لا يمكن لك أن تتخيل، قالها المدير.

ذات مرة قذف ممرضا بطبق الحسـاء في وجهه، وكان على وشـك أن يطعن ممرضة بمقص في الجزء العلوي من فخذها. في هذه الفوضى كان يسـمح لنفسـه بالتمادي، ويتبول متعمدا

في الفراش، رغم أنه لم يكن مصابا بداء سلس البول، لكنه أراد أن ينهكنا. كان ينادي باستمرار وعندما تأتي إحدى الممرضات، يكون دائما قد فات الأوان. «كانوا من الممكن أن يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا»، كررتها المرأة العجوز لا مبالية، (يختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، أخرجوها من هنا، أنا لم أعد أحتمل ذلك، صاحت ممرضة، أنا لم أعد أحتمل سماعها. قال الشرطي بنبرة واقعية:

- يجب الآن أن أحرر محضرا.

(ليختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، صاحت العجوز ذات الجمجمة الصلعاء والحاجبين الكثيفين. سأل مدير الدار:

- هل الأمر يحتاج محضرا؟ لكن عليك أن تعمل على عدم نشر الخبر في الصحف، لأن ذلك سيكون دعاية سيئة لدارنا، بالذات في الوقت الحالي، أنت لا يمكن أن تتخيل كيف أننا نصارع من أجل الحصول على عملاء، أيضا هنا المنافسة في السوق صعبة وقاسية، لقد تم إلغاء الدعم الحكومي منذ فترة طويلة.

قال ڤالتر:

- لكن هذا أمر غير إنساني.

- أنا لا أريد أن أسمع شيئا، خذ أباك معك إلى البيت.

قال المدير.

أقوال كبيرة تُقال، وعندما يتعلق الأمر بالفعل يحدث التراجع. مكان صغير جيد، تخيل ڤالتر، مكانا صغيرا جيدا للأب، الذي منحني فيما مضى، ركنا صغيرا في غرفة الحرف بجانب طاولة عمله، وسلّحني بكل ما هو ضروري؛ مكبسا مثبتا بالطاولة،

ولوحا خشبيا به مكان لتعليق الأدوات، مثل ما لديه، فقط كل شيء كان أصغر حجما. بعناية سوف يجردونك من البدلة الرياضية، وعليك أن تمد ذراعيك، الذراع اليسرى أولا، بعدها اليمنى، بعدها سوف يديرونك بعض الشيء، ويرفعك الممرض إلى أعلى قليلا، حتى تتمكن الممرضة من أن تشد السروال من فوق مؤخرتك، وتنزع لصقة الحفاضات، سوف يضعون بطانية فوق نصفك الأسفل، ثم يتوجهون بك وأنت فوق كرسيك المتحرك إلى غرفة الاستحمام، ويضعونك تحت الدش ويقومون بغسلك بالصابون. لن يكون هناك ثمة فرق، فهم يقومون بغسل ظهرك، قدميك، أو قُبُلَكَ، كل شيء بدقة وفقا للوائح، بإتقان وبلا عاطفة. تخيل أنه في بعض الأحيان تومض الرغبة فجأة لدى أحد كبار السن، فلا داعي لإضفاء أهمية على هذا الشأن، فقط بعض الماء البارد وبعدها يزول كل هذا المجد. سوف ترتدي بدلة رياضية نظيفة، والشعرات المجففة القليلة ستظل ملتصقة بالجمجمة مثل زغب، وسيدفعونك بحذر إلى المصعد، وكأنهم يقودونك إلى صالة الطعام، والأبواب التي تغلق أوتوماتيكيا في الممر، تفتح كما هو الحال دائما بحركة اهتزازية خفيفة. لكنهم في ذلك الوقت سيدفعونك بكرسيك المتحرك إلى المخرج، ربما يضعون دثارا فوق ركبتيك، رغم سخونة الطقس الرهيبة، بالضبط وفقا للوائح، فكبار السن لديهم دورة دموية ضعيفة.

وفي الخارج ستنتظر سيارة عادية، ربما يأخذك مدير الدار شخصيا في سيارته ماركة تويوتا كامري، ربما يتملكه الخوف من أن تقوم بتلويث مقاعد سيارته، إنه لا يريد هذه الرائحة، رائحة كبار السن وبالذات في سيارته الخاصة. يمكنني بشكل

ما أن أتفهم ذلك لأنه في النهاية أيضا إنســان. يقف في الخارج تاكسي، 44444، ويخرج سائق ودود من السيارة، ويدخل قميصه في البنطال، ويلقي وبحركة محســوبة تماما بعقب سيجارته في قالب زهور البيتونيا، ويلقي نظرة مريبة إلى الراكب في كرســيه المتحرك؛ هل يجب عليه حمله إلى الســيارة؟ هل معه مرافق؟ أم عليه أن يقدم مســاعدة إضافيــة دون مقابل؟ يا أبي عليك الآن أن تأخــذ قرارا، فــي مثل هذه المواقف كنت دائما تفعل شــيئا، لمــاذا الآن تخذلني فجأة؟ هل تعرف ماذا يعني أن يتم نقلك إلى مستشفى الطب النفسي للشيخوخة؟ سيملؤون جسدك بالأدوية، لن تراودك فكرة أن تضايق الممرضات أو تضرم النار، ربما ترقد في السرير طوال اليوم، ويقومون بتحريكك من حين لآخر، حتى لا يتقرّح جسدك.

ســيفتحون النافــذة، حتى تمتلئ الغرفة بالهــواء النقي، ولن ينقصك شيء، سيهتمون بك، بالضبط وفقا للوائح. وربما توجد عــلاوة على ذلك في مكان ما في القســم، متدربة، تربِّتُ بيدها فوق رأسك، ذلك لأنك قريب يا أبي جدا من السماء، من يدري. وفيمَ ســتفكر طــوال اليوم؟ هل ســتقوم بالتنزه فــي ذاكراتك؟ هــل لديك صور خاصة؟ والتي لا يمكنــك التخلص منها؟ والتي تطاردك دائما؟ هل ســتعاني من الكوابيس؟ أم ستذبل مثل نبات في سلام؟ هل ستستطيع التعرف عليّ؟

سيضعون غطاء بلاستيكيا فوق المقعد الخلفي، لا شيء يمكن أن يحدث، لقد كان في التوّ بدورة المياه، وبشكل عام فهو محاط بالحفاضات بإحكام. لا داعي للقلق، الآن ســيؤخذ الأمر بجدية يا أبي العزيز، فهل تريد أن تبقى صامتا؟

وهنا سأل الشرطي فجأة:

- هل والدك منزوع الوصاية؟ لماذا كانت توجد لديه شمعة مشتعلة في الغرفة؟

قال ممرض شاب:

- إنه كان يطلب دائما شمعة عند تناول الطعام. وعندما كان يريد أحدنا أن يبعدها عنه، كان يظل يصرخ حتى نعيدها إليه، ربما كانت تمثل له نور الحياة.

(ليختنقوا في الأسرّة أو يُحرقوا)، صاحت فجأة العجوز ذات الجمجمة الصلعاء والحاجبين الكثيفين مرة ثانية وعلامات الانتصار على وجهها، (يختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا).

في هذه الأثناء وضع الأب يده فوق رأسه، قال الابن:

- ربما كان هناك شيء يؤلمه، أعطوني من فضلكم فوطة مبللة. لا.. أنا سأذهب به إلى الحمام.

قال الابن للشرطي:

- هل تحتاجني للتحقيق؟ فيما بعد، عندما تعود مرة ثانية، إن هذا يكفي، فإنك لم تكن موجودا عند اندلاع الحريق.

ممرض شاب، ذو شعر قصير مصبوغ باللون الأصفر بيّن له الطريق.

دفع الابن أباه على كرسيه المتحرك خارج غرفة الانتظار، مارا بساكني الدار، المندهشين بما حدث، والذين يجلسون في ثياب النوم على حواف أسِرّتهم أو الذين يمسكون بمقابض الأسِرّة مرتعشين يحاولون حفظ توازنهم.

المرضات المساعدات يمسحن الماء بماسحات الإسفنج والمطاط، والتي كن يعصرنها فوق الدلاء البلاستيكية الموجودة

في الحمام، مرّ الابن بفوطة مبللة فوق رأس الأب، قال المرض: ربما ينبغي أن نحممه. أنا سأحضر لك ملابس داخلية نظيفة وحفاضات وبدلة تدريب رياضية، هل تستطيع بمفردك القيام بذلك؟ لماذا لا يستطيع الابن بمفرده إنجاز ذلك مع الأب؟ إن هذا من شأنه أن يكون مثارا للسخرية.

فتح سحّاب السترة الرياضية وسحبها فوق رأسه، قائلا: هل يمكن أن تساعدني وترفع ذراعيك بعض الشيء. بعد ذلك يأتي القميص الداخلي.

لم يستطع أن ينظر إلى جسد أبيه، كان يشعر بالخجل، وينظر إليه خلسة من طرف العين، ويود لو أغلق عينيه أمام هذا العجوز ذي اللحم الأبيض.

قال المرض: ها هي الملابس الداخلية النظيفة وبدلة التدريب الرياضية، هل يمكنك أن تنجز هذا بمفردك؟ أيضا مع الحفاضات؟ شكرا. هل أنت هنا منذ مدة طويلة؟ كلا.. أنا أريد أن أصير طبيبا، هذا هو التدريب العملي لي وحدي مرة أخرى. ستخلع البنطال، عليه أن يرفع الأب، بالذراع اليمنى يمسك الظهر النحيل.

أحس بجلد العجوز الدافئ الذي كانت رائحته كالدخان، هكذا تكون رائحة شخص يدفئ نفسه على النار، عندما يحمّر نقانق على سيخ، هذه الرائحة لا يمكن للمرء أن يزيلها من ملابسه. إن رائحتك كشيء طازج مدخن.. تجنب نظرة الأب، حينما رفعه عاليا، وقام بإمساك البنطال، وشده لأعلى مع السروال الداخلي على الفخذين. الآن سترتدي الجوارب فوق القدمين، الحفاضات لن أفتحها إلا في الحمام.. حمل الابن أباه عاليا، الأب الذي

كان ذات يوم، قويا، رياضيا، والذي كان يســتطيع أن يتسلق قائم التسلق بساقين مثيتين. الحفاضات كانت ثقيلة، مشربة بالبول، وقُبُلُه صار متجعدا من البلل.

ألقــى ڤالتر الحفاضات فــي دلو، ثم فتح صنبــور المياه، واختبر درجة حرارة الماء، وقام بتحميم الأب. وبإسفنجة مليئة برغوة الصابون قام بتنظيفــه. تجنب النظر في عينيه، وإلى أعضائه التناســلية، بعدها قام بلف الأب بفوطة حمام كبيرة بيضاء خشــنة تابعة للدار. وتذكر ڤالتر ما قاله الأب في ذلك الوقت: خذ الجرة التي بها رماد جســدي بعد حرقه؛ واذهب إلــى زيورخر لأوبرلانــد، اصعد فوق التل، وانثــر رمادي، أنا لا أريد قبــرا، عليك أن تفعل ذلك من أجلي، إنه واجب الابن وخدمة الحب الأخيرة. لقد طلب هذا منذ عدة سنوات، أثناء إحــدى النزهات. بعدها أجلس الأب فوق كرســيه المتحرك، والذي كان قد وضــع الحفاضات فوقه، ومدها ناحية الظهر وفوق موضع ذكورته، ولصق جزأيها فوق بعضهما من الجانب بشكل محكم.

الآن تأتــي الســراويل الداخلية. ســمع الممرضــات يدفعن بالماســح تجاه باب الحمام، ســمع عصر المياه من إســفنجات الاســتحمام مســببة صوتا كالصفيــر وهي تتدفق فــي الدلاء. الســراويل الداخلية ناصعة البياض، وحجمها كبير بشكل كاف، كــي يتم لفها حول الحفاضات، في الحال ســوف يأتون لأخذك يــا أبي، هل تفهمنــي؟ ومد القميص الداخلــي فوق رأس الأب، وفي أثناء ذلك قام بنكش شعره. إنها خدمة الحب الأخيرة. كان يحكي له الأب فيما مضى: لا يجوز أن تخذل رفيقا في الحرب،

لا يمكن للمرء أن يسمح بترك رفيق جريح للأعداء، فنظراته اليائسة ستطاردك طوال العمر.

وماذا يجب عمله، سأل الصغير أباه آنذاك، ربما كان في السادسة أو السابعة من العمر. عليك أن تطلق عليه النار إذا طلب منك ذلك. إنها مواقف في الحياة، يجب أن تحسم الأمر فيها سريعا يا صغيري. ويجب ألا نترك الحيوانات تعاني، لقد شهد الفتى هذا بنفسه، أرنبا مريضا، كان يجر ساقه الخلفية، ضربه الأب بعصا على عنقه. فقط عليك أن تنجح في التصويب، تطلق النار على صديق عزيز، وتسدي له في مثل هذا الموقف خدمة أخيرة.. أين؟ ماذا؟ أين؟ في أي مكان في جسده ستطلق عليه الرصاص؟ سأل الطفل، في الرأس أم في القلب؟ فالتر شد البدلة الرياضية فوق رأس الأب، وعبر صدره إلى الجزء التحتي وعبر الظهر حتى مؤخرته المحكمة بالحفاضات، أين؟ في الرأس أم في القلب؟ ماذا.. أين؟ هذا السؤال لم يجب عليه الأب أبدا.

ظهر العرق على جبين الابن، وهو يجلس القرفصاء، ويلف الجورب حول قدمي الأب، ويدس ساقيه في بنطال البدلة الرياضية، بعدها ألبسه البنطال ذا اللون الأزرق الفاتح وشده عاليا تحت مقعده وفوق الحفاضات، ومشى بالمشط فوق شعره مرة أخرى. في الرأس أم في القلب؟ هناك طرق على الباب، لم يكن مدير الدار، كانت المرأة العجوز، نظرت إلى الداخل وصاحت: ليختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا. ببغاء في صورة إنسان، لكن بلا أجنحة، هذه المرأة. أفضل صديق يجب عليك قتله بالرصاص في مثل هذا الموقف، هنا، يجب أن تستطيع أن تنظر في عينيه. وضع الأب يديه فوق مسند الكرسي المتحرك، وكانت أوتار اليد

بـــارزة فوق جلـــده المترهل المصفر. لم يعد هنـــاك أي لحم فوق المفصـــل المليء بالعقد. لماذا يا أبي العزيز؟ لم تجنبني عملا مثل هذا؟ في الماضي كنت رجلا قويا، تنكب على العمل وتستطيع أن تضرب. ذات مرة أسقطت رجلا على الأرض عندما قام بالهجوم عليك وكنت في الرابعة والعشـــرين عندئـــذ. وحتى وقت قريب، كنت ما زلت تقلم الأشـــجار بالمقص، بحـــركات قوية وبلا كلل.. والآن؟ مـــاذا ينبغي عليّ أن أفعل؟ قل شـــيئا يـــا أبي.. أعط أية علامة؟

هل تتذكر أي شـــيء؟ هل ما زلت تتذكر نفسك؟ أنا لا يمكنني أن أفعل شيئا لك، وسوف يأخذونك معهم، ربما يكون هذا شيئا طيبـــا. لماذا لا تنطق بكلمة؟ هل أصابك الخرف؟ أم تتصنعه؟ أم كلاهما؟ ربما لا يكون الوضع في مستشـــفى الأمراض النفسية مختلفـــا عن هنا، ربمـــا يكونون أكثر ودا. نظـــر ڤالتر إلى المرآة خلف حوض الغســـيل، وقارن نفســـه بالأب، شـــيءٌ لافت للنظر، نفس تكوين الرأس، أنت تشـــبه أباك كل يوم أكثر، أيضا الوضع الجسماني، لا، لا، ليس فقط بسبب الصلعة المبتدئة، إنما المظهر الكلي، بشكل عام.

مـــن ناحية كان ڤالتر فخورا، ومن ناحية أخرى قال لنفســـه، كل شـــيء إلّا هذا. رغم أن الأب كان رجلا وســـيما، وكانت لديه حظوظ عالية لدى النســـاء، ومحترما من قبل الرجال، لقد كان أكثر وسامة من الابن نفسه. كان ڤالتر يعتقد، بطريقة أو بأخرى أن الأب كان أكثـــر جـــرأة، أكثـــر رجولة، على الأقـــل في الصور فقط. لم يستطع الابن أبدا أن يصل إلى مستوى الأب، كان الأب ســـيقتل صديقا له في الحرب، دون شك كان سينظر في عينيه،

وسـيضغط على الزناد. لكن يا أبي أنا لا أسـتطيع أن أخنقك، أنا لا يمكـن أن أقتلك بمرفق الدش. ماذا فـي الحقيقة تنتظر منـي؟ واجب الابن؟ هل ينبغي علـيّ أن آخذك معي إلى البيت؟ هل يجب أن أقوم بتنظيف مؤخرتك العجوز المتجعدة المترهلة كل يوم؟ نعم، من الممكن أن تأتي معي إلى مسـكني، فمساحته كبيرة بمـا فيه الكفاية، لكن، ماذا يمكن أن تقول مارا بخصوص ذلك؟ من المحتمل أن تترك الشقة، لكن أنا شخصيا لا يمكنني تحملك على أية حال يا أبي.

هـذه هي الحقيقـة العارية، لقد كنت أتحملـك بصعوبة في الماضي، قربك كان دائما يسلبني حريتي، لكن الآن تقتلني بكآبتك الخرساء، ألا تفهم ذلك؟ أنا لا أسمح لنفسي بخذلانك، إذا كنت فعلا في حاجة إليّ، وأنت أيضا هل كنت سـتفعل نفس الشـيء ولا تخذلني؟ ربما كان من الأفضل لك أن تذهب إلى مستشـفى الأمراض النفسـية، جاهزون هم هناك لمثل حالتك، هناك سوف يتركونك في هدوء، وسـوف يهدئون أعصابـك عندما تغضب، فأنت دائما متقلب المزاج وسـريع الغضب، ربما كان مكانك حقا هناك بالفعل، ربما كان مدير الدار على حق، كل شـيء ضروري سـيكون متوفرا لك، ولن ينقصك شيء، لماذا نثور ضد ما لا مفرّ منه؟

أنا لا أريد عجوزا رضيعا في شقتي، أريد أن أحيا في حرية، أنا لا يمكنني تحمل وجودك يا أبي، هل تفهم ذلك؟ وما رأيك؟ ربما يروق لك الوضع في المستشـفى؟ سوف أزورك بانتظام، يمكنك الاعتماد عليّ في ذلـك، وقد أثبّتُ هذا أيضا حتى الآن. أنت لا يمكنك الشـكوى، لسـاعات طويلة كنت أطلّ معك من النافذة،

أثرثر معك أو أصمت. هناك في مستشفى الأمراض النفسية، فوق، في مكانك المحبوب زيورخر لأوبرلاند، سيكون لديك منظر خلاب، ربما تنتعش مرة ثانية من جديد، عندما تتناول الأدوية المناسبة. هنا في دار الرعاية ليست لديهم أية فكرة، أما هناك فقد تم تأسيسهم لهذا الغرض. من يدري، ربما تتفتح يوما من جديد مثل وردة. ماذا تنتظر في الحقيقة مني؟ هل يجب أن أقوم بدفع كرسيك المتحرك عبر السلالم إلى أسفل كي تقفز على الدرج مثل أرنب؟ أو كعربة الأطفال في فيلم المدمرة بوتمكين؟ سوف تقفز عدة قفزات، هوب هوب، ثم بعدها يسقط الكرسي وتقذف بعيدا، ويصطدم رأسك بأحد سلالم الدرج.

ربما تبقى على قيد الحياة، وتستلقي مغيبا بفم مفتوح على السرير، عيد ميلاد بعد عيد ميلاد، حتى يصير عمرك مئة عام، بقلبك السليم.. هل تريد ذلك فعلا؟ هل تنتظره مني؟ هل أركِّب لك خليطا من السموم؟ لكن طريقة إنسانية لا تناسبك، هذا الفرار الناعم، والموت الصامت لا يناسبك، أنا لا يمكنني تخيل ذلك. كنت تقول إن الرجل الحقيقي هو من يمسك بقرنَي الثور، الآن يمكنني أن أثبت أنني صرتُ رجلا حقيقيا.

ڤالتر نفسه أصيب بالدهشة، حين وضع يده فجأة على رأس أبيه، عندما رأى كيف تنهمر دموع الأب على وجنتيه غير الحليقتين جيدا، على شعيرات الذقن الشيباء، متجهة إلى فمه الصغير ذي الشفاه الرقيقة.

أبدا لا يتذكر أبدا أنه رأى الأب قبل اليوم باكيا، حتى عندما مات والده، وقف متحجرا بنوع من الاهتمام أمام الموت. الآن وفجأة صارت عيناه دامعتين. الفتى الحقيقي لا يبكي، الفتى

يجب أن يكون شجاعا، الفتيات الصغيرات هن اللاّتي يبكين.

هل تتذكر عندما قلت لي ذلك: تماسك! لقد عرفت الآن، لماذا يقول الآباء ذلك لأبنائهم، إنهم لا يتحملون رؤية الدموع في عيون الأبناء، أما دموعهم هم، تلك التي يحبسونها وتصعد لأعماقهم، فيعتريهم الخوف من أن يجرفهم تيارها ويغرقوا في فيضان من الدموع.

حمل ڤالتر الأب، رفعه عاليا، شـــيء مدهش، كم هو خفيف! أربعون كيلو جرام علـــى الأكثر! وزن الذبابة. بعدها انحنى وثنى ركبتيـــه، ووضع الأب فوق الكتفين، هكـــذا، كما كان يجلس وهو طفل فوق كتفـــيّ الأب. من هذا الموقع العالي كان ينظر من فوق إلى أســـفل على الجميع، وعندما تحترق الدمية المحشوة ببقايا الخشـــب في هيئـــة رجل الثلج في أعياد الربيـــع في زيوريخ. لم يتعب الأب أبدا، كان في اســـتطاعته حمل طفله لساعات طويلة. صاح الأب وهو يحملني، تماسك، كان ذلك حينما يشعر الصغير بالفزع عند ســـماع الانفجارات. إن هذا شـــيء سخيف، لم يمت أحد حتى الآن بسبب هذه الفرقعات، انتظر حتى ينفجر الرأس، حينئذ سيكون الدويّ هو الأروع.

كان الأب منزعجا، والصغير أحس ذلك من حركات رأس الأب المتشـــنجة: عليك أن تكف عن الحركة، إن هذا ليس مدفعا، ولا يوجد إطلاق للنيران، إنه أحد الطقوس القديمة، بهذه الفرقعات يتم طرد الشـــتاء. ذات مرة وهو فـــوق كتفي الأب، تبول الصغير فـــي البنطال. يـــا لها من فوضى ملعونة، قالهـــا الأب وأنزله من فوق كتفيه، وسحبه إلى أقرب تواليت عمومي في بيلفي بلاتس، وهنـــاك أنزل بنطاله ومســـح عانته مؤقتا بـــورق التواليت المبلل

بالماء، حتى إن بقايا الورق ظلت عالقة بها. في المرة القادمة، عليك أن تتماسك وإلا بقينا في البيت، لا تنس أنك صبي.

وفي الخارج انفجر رأس الدمية، مسببة صوت فرقعة رهيبا. لقد كان وكأن كل شيء تم جرفه من فوق سطح الأرض، الأشجار القديمة المحيطة بالمكان، الناس، المباني. عليك يا أبي أن تخفض رأسك، وإلا فلن نتمكن من الخروج من الباب، عليك أن تتماسك. ضغط ڤالتر رأس أبيه إلى أسفل وأحس بذقنه الخشنة على وجهه. شخصان غريبان يمكن رؤيتهما في المرآة المكسوة بالبخار. أمسكْ عنقي بكلتا يديك، ليس بعنف، أنت تسحب مني الهواء، نعم، هكذا، الآن سوف يمر الأمر سريعا: الجو مهيأ، لا أحد هناك، سوى مساعدات الممرضات اللاتي يقمن بالتنظيف، لا أحد في الممر، إنهم لا يمكنهم منعنا. انتبه، الأمر سيصير جادا، يجب علينا بلوغ الدرج، أمسك بقوة!

(ليختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا)، صاحت العجوز ذات الجمجمة الصلعاء، عندما رأت الأب، (يختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا). أما الآخرون فلم يزعجهم شيء، مساعدات الممرضات كن ينظفن بالمماسح والفوط، وكبار السن من الرجال والنساء، كانوا يجلسون في كراسي المقعَدين، أو كانوا راقدين في أسِرّتهم، بين اليقظة والنوم، غير واعين، محدقين في شاشات التلفزيون المهتزة. الآن سأدفع بقدمي باب الممر، كُنْ في وضع مستقيم ولا تتحركْ، لو تسببت في صعاب فلن ينجح الأمر، هنا على الدرج سيكون الأمر أسرع من المصعد، شيء كوميدي يا أبي، أليس كذلك، تقريبا مثل ركوب الخيل، اقفز، اقفز أيها الفارس. عندما يسقط.. عندما يصرخ.. لا تسقط، لا تصرخ، وإلّا فالرحلة

ستنتهي قبل أن تبدأ. هذا شيء ممتع، الآن فقط اقترينا من باب المدخل، في الخارج، كان الليل قد بدأ في الهبوط، دعنا نغادر فورا، ننصرف من هنا.

لا يمكنهم تصور ذلك، لا يمكن لأحد تخيله. (ليختنقوا في الأسِرّة أو يُحرقوا)، صاح ڤالتر ضاحكا لقد جُنّ الأب وحال الابن ليس مختلفا، يبدو أن الجنون شيء متأصل في عائلتنا. تخيل أن الدار احترقت بألسنة النيران، سفينة حربية تتفجر بمقَربة من الجبل المظلم، صفير ورعدُ انفجار وحطام، صراخ وأنين، لا نوم بعد اليوم، لا أحلام. والآن إلى أين سنتجه؟ إلى اليسار، أم إلى اليمين؟ سوف تذهب إلى كوخك الريفي المحبوب في زيورخر أوبرلاند، والذي قمت أنت بنفسك ببنائه من الخشب منذ أعوام، هل ما زلت تتذكر؟ عندما قمت بشراء جذوع الشجر المقطوعة الطازجة من حارس الغابة؟ وكنت تأتي كل عطلة سبت وأحد لتعمل في بنائه. في بعض الأحيان كنت أساعدك، أكثر من عامين أمضيت في بناء هذا الكوخ. بعدها صار البيت الخشبي جاهزا، كانت زيارتي الأخيرة مع مارا هناك منذ نصف عام تقريبا.

إن خشب البيت يحتاج طلاء جديدا، لكن مازالت حالة السقف جيدة، مازال هناك بالتأكيد عدد من علب معكرونة رافيولي وكريم الفانيليا. سوف يكون كل شيء على ما يرام. إلى هناك سوف نذهب يا أبي، وهناك سوف نسكن سويا، وسيكون الأمر أجمل، الأب والابن، سوف نريهم يا أبي، أو ماذا يمكن أن يحدث لو قمت بحملك إلى الجبل، وأجلستك على كرسي وبعدها وبكل بساطة تركتك وحدك هناك ومشيت؟ ربما يفتقدونك الآن

بالفعل، وبدؤوا في البحث عنك، ستنادي ممرضة ويناي ممرض، إنهما لم يعودا موجودين، إنه شيء غير ممكن بالفعل! نحن الآن في منأى عن العيون، وأنا بدأت في التعرق والهواء لم يبرد بعد، سوف تكون هناك عاصفة رعدية. ماذا كان يدور في رأسك في الحقيقة عندما أضرمت النار في الغرفة؟ هل كنت تدرك يا أبي خطورة ما فعلت؟ هل ما حدث كان عن طريق الخطأ؟ أم كنت تريد أن تعبر عن شيء ما؟

هل كنت تريد مضايقتهم، أم كنت تريد أن تقتل نفسك، تحرق نفسك حيا؟ إنه ليس رحيلا جميلا أو نوما هادئا أو وفاة مفاجئة سببّها توقف القلب عن الخفقان، وليست كذلك موتا ساكنا في وسط أحبائك. إذن لتملكك الذعر، وكنت سوف تصارع من أجل الهواء، في أفضل الحالات كنت ستختنق. من المحتمل أن النار كانت ستشتعل بملابسك، هل كنت تعرف حجم الألم الذي كان سيلمّ بك؟ الحرق كان في العصور الوسطى وسيلة تعذيب. هل كنت تريد أن تكون بطلا؟ رجلا حقيقيا، بطلا أمام نفسك؟ أم في الحقيقة كان كل شيء مجرد مصادفة غبية، وعملا أحمقَ؟ في وقت ما سوف تجيب عن أسئلتي، أريد أن أرى ماذا يدور في عقلك.

هنا على هذا المقعد سوف أجلسك سريعا، هنا لن يزعجنا أحد. الآن ستصيح الجداجد الحقلية، يا له من مساءٍ صيف رائع!

أقعد ڤالتر الرجل العجوز بجانبه على المقعد، برهة قصيرة ظلّا هكذا جالسَين، بعدها أخذ ڤالتر حقيبة ظهره، وقطع بسكين الجيب فتحة في كلا الجانبين، كبيرة بما فيه الكفاية كي

يتمكن الأب من مد ساقيه من خلالها، ثم اختبر أربطة الحقيبة، وجثم على الأرض وألبس الحقيبة في ساقَي الأب، وكأنها سروال قصير، ثم أدخل نفسه في الحمالات ورفع حقيبة الظهر التي بها العجوز عاليا. حسنا، والآن يمكن أن يبدأ المشوار بشكل صحيح، أنا لا أكاد أشعر بك فوق كتفيّ إنك خفيف للغاية، معك الآن يمكنني السير إلى نهاية العالم. أنت لم تعد محتاجا لتطويق رقبتي، أنت لا تستطيع حفظ توازنك بسهولة، يكفي أن تستند بعض الشيء على كتفيّ، الآن لن يعطلنا أحد. على الطريق مع الأب الحي وليس كما كنت تقول لي، مع بقايا رمادك.

تخيل يا أبي العزيز؛ لو كنت سافرت مع بقاياك المتفحمة في جرة الرماد، ملفوفة في كيس بلاستيك من محرقة جثث الموتى بنورد هايم في شارع ڤاينتالر في اتجاه بوخيج بلاتس، كما كنت تطلب مني وقتها. كان الموظف في محرقة الجثث سيقول، التبديل مستحيل، لدينا نظام صارم، بالضبط كما في مستشفيات الولادة، هذا أبوك، ومن الممكن أن يقوم بنزع غطاء قنينة الرماد، وأن يشير بإصبعه إلى داخلها، هذا هو أبوك، ليس هناك أدنى شك في ذلك. ورغم ذلك فهناك أيضا من الأطفال الرُضّع من يتم استبدالهم دون قصد، فالبطاقات الملصقة على أسرّة الرُضّع تُفقد وتضيع. يلوح الآباء والأقارب إلى طفل مستبدل بابتسامة، وإلى قدر مستبدل أيضا. وسيكون الانتهاء من الإجراءات الشكلية سريعا إجراءات دون أخطاء. تسليم روتيني مع كلمات مرفقة معتادة، خالية من أية إحراجات ممكنة، وأية أحاسيس كاذبة، قصيرة وجادة. في البداية، الاستمارة، كي يبدأ كل شيء بشكله الصحيح. سوف أجعل

الاستمارة بين شفتيّ، ليس عندي مكان آخر يا أبي العزيز، فأنا أحتاج كلتا اليدين لحمل جرة الرماد.

كنت أخشى أن أمسكها بيد واحدة فتنزلق مني. قال الموظف، يمكنـــك أيضا وضعها في وضع أفقي، فهي مغلقة بغطاء محكم. نحن نرســلها بالســكك الحديدية، وبالباخرة، وبالطائرة إلى كل أنحاء العالم، صُنع في سويســرا، حتى الآن وصلت ســليمة إلى كل مكان. ســليمة.. يا لها من كلمة، فكــرت أنا. لكني لم أرغب في إرسال جرة الرماد، كنت أرغب فقط في حملها، وفقا لطلبك الذي طلبته خلال نزهة، يمكن القول في لحظة احتفالية معينة، إنها جميلة في زيورخر أوبرلاند، وذلك ذات صباح يوم من شـــهر أغســطس، قبل عامين، هل تتذكر؟ تحدثت عندئذ إليّ بشــكل مفاجئ محاولا إقناعي.

كان يوما حارا مثل اليوم، والهواء يتحرك بقوة فوق قمم الجبال. على اليمين، خور فيرشــين، مع السينتس، بعدها جبال جلا رنز، تابعة لسلسة جبال الألب، إيجر، مونخ، ويونج فراو.. كل بانوراما جبــال الألب. وفي أقصى اليمين غربا، سلســلة التلال الناعمة التي تنتهي ببفاتين ستيل، خلفها تأتي سلسلة إلبيس مع إلكونتور المعروف، يمينها جبــل الأوتيل مع البرج وهوائي التلفزيون. هذه هي منطقتنا، وطننا.. يمكن أن نسميها كذلك. تلك كانت رغبتك، طلبك، واستخدمت كلمة واجب الابن للتعبير عنها. لا يمكن جعل كل شـــيء حياديا بمزحة، أو بكلمة ســاخرة، كما كان يحب كلانا أن يفعل. كان الأمر بالنســبة لي، وكأن وترا يتمزق داخلي، وكأن ســوطا يضرب أعماقي، يضرب الروح المسالمة، كان وكأنه لكمة غــادرة في الحجاب الحاجز. لكن هذا كله لم يكن ســوى مزحة

سـخيفة، هل تتذكر؟ أنا آمل ألا أموت في الشتاء، قلت ضاحكا، وإلا فإنك سوف تنزلق وتسقط معي، وننجرف سويا إلى المنحدر.

تخيل أني أجبت على سـؤالك، في ثقافات أخرى، يجب على الأبنـاء حمل آبائهم عند الموت إلى أعالي الجبال. كنت قد تركت المحرقة خلفي، وشـعرت بثقل جرة الرمـاد، من خلال الحواف الحـادة لمقابض الكيس البلاسـتيك. والآن أمامنـا أمتار قليلة وندلف إلى الغابة، هناك سـوف يكون الجو باردا بعض الشيء. أشـعر بدفء جسدك فوق ظهري، من خلال مادة النظبياون في حقيبة الظهر. سـوف أوضح لك كل شـيء مرة أخرى، كما كنت توضحه لي سوف أشرح لك كل الأشياء، وسوف أمنحها أسماء، سوف يكون خشـب التنوب هو خشب التنوب، وخشب الزان هو خشـب الزان، والكرز البري هو الكرز البري، سـوف أسـتطيع أن أفرق بين الأصوات الليلية، سـوف أحدد لك بالاسـم صرخة البومة الصغيـرة ونباح الثعالب الغليـظ. النباتات والحيوانات، الأرض والسـماء. يمكننا التحدث عن كل شيء، لماذا يصير الليل ليلا والنهار نهارا. تستطيع أن تطرح عليّ أي سؤال.

سـأحاول أن أرد بكل صدق، أشـياء كثيرة لـن أعرفها، في الحقيقـة ما زلـت أعتمد دائما عليك. لكن الآن سـوف أنصت لك، عندما تشرح لي أمرا. لن أشعر بالملل، ولن أسخر منك ولن أعتبر نفسي أيضا أذكى أو أكثر معرفة منك. وعند المشي يمكننا قـول ما لا يمكن قوله بيننا عند الاهتزاز، ربما حتى بالصوت أو بالضجيج. فقـط يجب علينا أن نصغي جيـدا. تقريبا لم نجد أبدا المساحة الصحيحة لحديث مثمر بيننا، فإما أن يكون عراكا صاخبـا وإمـا أن يتوه كل منا فـي مونولوج داخلـي. غالبا كان

الأمر يدور حول انتصار أو هزيمة. هل كنت في الحقيقة إنسانا متواضعا أم مجرد ثرثار قلق؟

لقد كنت تقوم بجولات طويلة في المدينة، كان معروفا عنك ذلك، كنت تجعل نفسك دائما في حالة حركة كي لا تنفجر. أحيانا كنت أراك من بعيد وأنا في سيارتي تمشي بانحناءة لكن بخطوات واسعة ومنتظمة. من حين لآخر كنت تأكل تفاحة، التفاح صحي وسهل الهضم وينظف الأسنان، هكذا كنت تقول. في الماضي كنت تتنزه مع كلبك الدوبرمان الذي قمت بتدريبه بنفسك، وغالبا ما كنت تقرأ الجريدة على الطريق. أنا أقصد بشكل جاد، هل كنت تنادي في كل نزهة: انثروا رمادي هنا، بالضبط هنا فوق هذا التل، وتشير لي بحركة من ذراعك الممتدة إلى الأسفل. بالضبط هنا! كان هذا المكان يبعد عدة مئات من الأمتار من كوخنا الريفي، منخفضا بعض الشيء، عندما يميل الانحدار إلى أسفل. المنظر الطبيعي من هنا رائع وخلاب، لقد اخترت مكانا صغيرا جميلا بالفعل. كنت أنظر إليك من الجانب، مظهرك الجانبي كان مازال حادا، أنفٌ ذكوري. كانت أمك تقول ذلك دائما. رياحٌ صباحية دافئة هبت عبر التلال، يوم صيفي رائع، الأشجار تتمايل برفق، كانت وكأنها تلوّح لنا.

وفجأة صار وجهك قريبا مني للغاية، كان علي أن ابتعد برأسي، ناظرا إلى الحقول، عبر الغابات المختلطة وإلى القمم في الجهة الأخرى والتلال. نعم، لقد حملتني في الماضي إلى هذه الأماكن، هل يطلب إنسان من ابنه طلبا مثل هذا؟ هل تصورت أن هذا طلب واقعي؟ أم أنه فقط كان هتافا وجدانيا؟ على كل حال كان هذا من سمات شخصيتك: بين المفرح والمضحك، بين

الغريب والحزين، أم كان الأمر يبدو فعلا على هذا النحو؟ هل هي أمنية طبيعية لأب عجوز؟ في الوقت الراهن؟ لماذا لا تكون مثل كل الآخرين، ويتم دفنك في مقبرة؟ لقد كنتُ أسمع دائما، انثروا رمادي فوق البحر، أو انثروا رمادي في حديقتي، أما أن تنثروا رمادي في بارادا بلاتس، فلم يطلب أحد هذا الطلب. ربما كان هذا دليل ثقة خاصا بالابن، ورمز تعلق حميم به.

هناك فوق التل سوف أخبره بذلك، كنت تفكر طوال الوقت في هذا الشأن. وعند المغادرة في ذلك الحين كنت تفكر في هذا. أم ربما جاء الأمر بطريقة عفوية، أم أن العاطفة تغلبت عليك؟ مناظر الطبيعة، الضوء، الابن، المزاج، ظلت كلماتك معلقة في الهواء كفقاعة كلامية مازلت إلى اليوم أراها أمامي، هذه الكتابة لا أستطيع إزالتها. بعدها مشينا برهة من الزمن صامتين جنبا إلى جنب. هل تتذكر؟ أرجوك، مرة ثانية لا تتشبث بي بهذه الطريقة، إنك تكاد تخنقني، هل ما زلت تتذكر تلك التمشية يا أبي؟ كنت أصغي إلى أنفاسك، كانت منتظمة بشكل طيب، كل شيء على ما يرام. فلم تلهث ولم يكن لديك صعوبة في التنفس. لكن فجأة، وكأنني سمعت خفقات قلبك تنبض عاليا، لم تكن هذه في حقيقة الأمر سوى دقات مشفر السور الكهربي، والتي دقت عندما انسللنا عبر الأسلاك.

ذات مرة لمست السور المعدني وقلت إنه يؤلم، لكنه أمر يمكن تحمله، جرّب أنت أيضا، على الأقل بعصا، فإنها تقلل من قوة الصعق الكهربي بعض الشيء. وفعلت أنا ذلك، لكن الصعقة كانت قوية، وأحسست أنك خنتني. تماسك، فأنت صبي، احترس الأبقار! فقد حدث أن دهست المارة المسالمين، لو اقتربوا من

البقرة قائدة القطيع، ربما يكونون ثيرانا. ونظرت أنا إلى ملامح النوع كي أميز جنسهم: كل شيء على ما يرام، لا شيء غير ضروع ثقيلة منتفخة. نعم، ماذا يحدث لو مشيت بكيس البلاستيك الذي تتدلى به الجرة التي بها رمادك، متجها من المحرقة، عبر فينتالر شتراسه نحو بوخيج بلاتس؟ كنت أتخيل ذلك مرارا، عندما كان طلبك يلمع مثل يافطة مكتوبة بالضوء، عند النوم أو في أي وقت آخر. لقد كانت تظهر أمام ناظري فجأة.

يمكن الإحساس به خلال جلد الحذاء، طريا. هنا وهناك تترك إطارات السيارات آثارا سوداء عند المنحنيات عندما يسيل القطران تحت وهج الشمس. كنتُ غالبا أود لو مررت بجانب محطة وقود، وهناك كانت ستفوح رائحة البنزين، ورجل يرتدي بنطال جينز أزرق و«تي شيرت» مطبوعا بالألوان، كان ربما سيملأ خزان شاحنته التويوتا الصغيرة بالوقود. سيكون وقت الظهيرة، والحرارة استوائية، أكثر من ثلاثين درجة مئوية وغازات العادم تهتز بجانب محطات تعبئة الوقود. وسيكون الإسفلت تحت نعليّ متوهجا بالسخونة، هذا في ذروة الصيف وأنا طفل، في ذلك الوقت كان الإسفلت أقل مقاومة للحرارة من اليوم. وسأكون على الطريق حاملا كيس البلاستيك، متنزها في المدينة برماد أبيه، دائما في حركة، حتى لا تنفجر روحه، دائما على سفر حتى لا يمرض. لكن لن يكون في حوزتي تفاح، سيكون معي آيس كريم، والذي سيذوب أسرع مما أتمكن من أكله، والبسكويت الرقيق المحيط به سيصير رطبا، طريا كما العلكة.

كان الأصدقاء يقولون دائما، إنك تشبه أباك؛ نفس الخطوة، نفس ملامح الوجه، مع هذا كنت أود لو أصير مختلفا، رغم

ذلك كنتُ أيضا فخورا: رجل حقيقي هكذا أيضا. اليوم سوف أنثر رمادك، رغم سخونة الجو، سوف أصعد إلى التل، وأقوم بتفريغ جرة الرماد. أخيرا سوف تتناثر في كل الرياح، بعيدا، بعيدا، سحابة خفيفة، مثل سرب من البعوض. لماذا لا تريد أن يتم دفنك بشكل عادي؟ لماذا ترسل ابنك ذا الخمسين عاما، بجرة رمادك في رحلة غريبة كهذه، لماذا تطلب منه شيئا مثل هذا؟ لا تجعلوا من الأمر الصغير شيئا كبيرا، انثروا رمادي في كل الرياح!

تعتقد أنك تتصرف بصورة متواضعة، لكن في الحقيقة ما الأمر إلا مسرح كبير. ربما تمتلئ عيناي بالدموع فجأة في فينتالر شتراسه، أو ينكسر بسكويت الآيس كريم الرقيق، ويسقط على الأرض، في الماضي كنا نأخذ عطلة عندما يكون الطقس حارا مثل اليوم. لو أسرعت الخطى أكثر من ذلك لاهتز بقوة كيس البلاستيك في يدي من خلال الحركة الإيقاعية؟ وتصطدم جرة الرماد بفخذي أو حتى بركبتي ويكون عليّ أن أثني ذراعي بعض الشيء، وربما يحدث لي شد عضلي وأن أقوم بتغيير الكيس إلى اليد الأخرى، أو أسير على مهل متنزها إلى قلبِ المدينة؟ لكن عن أي شيء أتحدث الآن؟ إننا نسير معا على الطريق، هربا إلى زيورخر أوبرلاند، إلى بيت عطلة نهاية الأسبوع. حتى وقت قريب، ربما قبل أسابيع قليلة، كنت أعتقد أنني أفعل كل شيء أفضل منك، أفضل بكثير، ربما أكون تطورا طبيعيا لك أو شكلا متقدما. كنت أعتقد أنه في الواقع ليس لديك فكرة عن الحياة، بالذات عن النساء، زواجك كان كارثة. الأمر بالنسبةِ لي كان شيئا مختلفا، على سبيلِ المثال مع مارا.

هل تتذكــر؟ لقد قامت بزيارتك مرتين فـــي دارِ الرعاية، كل منا كان يفهم الآخر بكلِ معنى الكلمة وكأننا نتنفس برئة واحدة، ليس فقط أثناء فترة ولهنا الأولى، لكن أيضا في حياتِنا اليومية، كانـــت أيادينا دائما تبحث عن بعضها، كنا نلمس بعضنا، كان كلٌ منا يحب الآخر كثيرا وكنا في احتياج إلى ذلك. وباســتمرار كنا راضين، وكان رضانا يقترب من السعادة، هل تفهمني؟ متى يبدأ التغيّر، هل تستطيع أن تقول لي ذلك؟ إنه ليس بالشيء المفاجئ. الدمار يبـــدأ خلف ظهرك، يزحف على نحو غـــادر، في البداية بشـــكل خفـــي وغير جليّ، لكـــن صدعا يلوح فجـــأة، ومن خلال الكلام، تحاول أن ترأبه، لكنه يتســـع، وفجأة يحدث شرخ وتصير شـــظايا الزجاج قريبة. عندما كنت تعود مـــن العمل إلى البيت، كنت تريد أن نتركك في هدوء، قبل الانفصال عن زوجتك، أمي، كنت تحبس نفسك في كلِ مناسبة في غرفتك، يا إلهي، كم كنت أكرهك لهذا السبب، لقد كنت أرى أن هذا أمر مثير للشفقة.

عنـــادك كان يجعلني غاضبـــا، وحزينا، وأيضـــا كان يجعلني خائفا، ربما كنت في ذلك الوقت يائســـا، شـــيء في داخلك كان مقتـــولا، وأنـــا لم أســـتطع إدراك ذلك، من كان علـــى حق؟ كان الأمر يدور دائما حول هذا الســـؤال. في الحقيقة، لم يكن سؤالا ضروريـــا. زوجتك كانـــت ترى الأمور بعيون أخـــرى، في البداية كنتما تحبان بعضكمـــا، بعدها بذلتما جهدا كبيرا، دون مردود.. أليس هذا شـــيئا فظيعا؟ هل هذا شـــيء عادي؟ مازال الطقس حارا، لكن ريحا تهب هناك، ســـوف تحـــدث عاصفة رعدية، أنا علـــى يقين من ذلك. أبي، هـــل ترى كيف تتمايل الأشـــجار هنا وهنـــاك، وكيف تتأرجح جذوع الأشـــجار الغامقـــة وكأنها ثملة؟

هل تسمع ماكينات الحصاد؟ على الفلاحين الآن أن يسرعوا، لو أرادوا حصد المحصول قبل نزول المطر.

نعم، في البداية يحدث تصدع، وخلال الشكوى الدائمة يصبح شرخا. فقط ودائما ليس هناك غير شيء واحد في رأسك؛ الجنس أو الطعام. جاء هذا الهجوم فجأة من مارا أثناء تناول الإفطار صباح اليوم. شعرت بالحرج، أكثر من أي وقت مضى، أحسست أنها جرحتني. لقد تعودت دائما على سماع هذا اللوم من النساء، خلال عمري الذي يبلغ أكثر من خمسين سنة، وتعلمت كيف أتغلب عليه. في منطقة أوبرزيه عند لاخن بدأ البرق بالفعل، الآن تركنا الغابة الصغيرة خلفنا. هل ترى كشافات النور لماكينات الحصاد هناك على الحقول تحتنا؟ عليكم بزيادة السرعة، حطموا أرقامكم القياسية، يجب أن يتم حصاد المحصول، وإلا فسوف يصيبه العفن في الحقول، وسوف يصيب الفطر السنابل. إن لم تقطع قاطعات الماكينات المحصول بشكل صحيح فسوف تتدخل شركات التأمين، عليكم بزيادة السرعة!

مرارا أصل إلى نفس النقطة يا أبي العزيز، والتي فيها تنهار أرض العلاقة فجأة. ليس هذا بالشيء الجميل، ولا يمكن أن تكون النساء وحدهن هن السبب، بالتأكيد أنا أيضا. خبرتي وحدها تعجز عن مساعدتي، أنا أيضا صرتُ أكثر مقاومة في هذه الأمور، صرتُ محصنا، محصنا ضد نفسي. كيف كان بإمكانكما حلّ هذه المعضلة، قبل ثلاثين أو ستين سنة يا أبي العزيز؟ دائما ما تأتي هذه النقطة والتي يتحول بها كل شيء إلى وضع منحدر مهدد، والتي يصبح فيها الصدع شرخا. أيضا الإثارة الجنسية لا يمكن بالشامبانيا إنقاذها، تنزلق الكؤوس

ولا يمكن عمل شيء، والآن أصبح كل شيء مسكوبا. كل التعبيرات الطويلـة، والمصالحات وهذه الخلافات المتجـددة. أيضا صباح اليـوم عندما قالت لي مارا هذا، حتى الآن كنت أعتقد أن الحب يعنـي لها مثل مـا يعني لي، على الأقل نفـس الأهمية، ثم يأتي مـا قالته لي عند تناول الإفطار بلهجـة قاطعة، أنا أحتاج عزاء الحب كما يحتاج آخرون عزاء الدين.

وعلى نحو مفاجئ نظرت إليها بعيون أخرى تماما، إنها ليست رائعة الجمال. عمرها لا يمكن إخفاؤه، بالذات في الصباح، تبدو خطوط قاسية حول فمها. وعلى حينِ غرة ينطفئ البريق ويزول السحر، وتسوء العلاقة، وتصبح النظرة غاضبة. هل تعرف هذا يا أبي العزيز؟ الآن، فهمت ذلك يا أبي وتوقفت عن التشبث بي، أنت تجلس بحرية فوق ظهري، هذا شـيء طيب، بهذا الشـكل يمكننا السير لساعات طويلة. دعني أكمل الحكاية:

هل تريدين مزيدا من القهوة؟ سـألتها بصورة رسمية، وحتى يصبح الجوّ محايدا، ومن أجل الابتعاد عن رائحة العلاقة النتنة وقفت وقمت بعمل ثقب بالسـكين في مسـرب حوض الغسـيل بالمطبخ، والتي كانت بقايا أوراق الخسّ والمعكرونة عالقة به.

إنني في الواقع إنسان سريع الغضب، مثلك يا أبي العزيز. من الأفضل لي لو كنت هويت بيدي فوق الطاولة وصحت: انصرفي إذن، أنـا لا أريـد أن أرى وجهكِ بعد اليوم. والآن صار مسـرب حوض الغسـيل بالمطبخ نظيفا، وبصوت شفطة واحدة أصبحت المياه تجري ثانية بسـرعة. قالت مارا أنت ستكسر السكين، في ذلك الوقت كنتُ أريد أن أسـألها إذا كانت تريد أن تمارس معي الحب. لكني الآن ألقيت بالسكين على الأرض بكلِ قوة وصرخت:

لــو تفوهت بجملة واحدة بعد الآن فســوف أنقــض عليكِ. لقد كان هذا شــيئا غير طبيعي. برمت مكبس ماكينة القهوة وكأنني أغلقت مصراعا لمدفع. في الحقيقة خسارة، سمعت روحي تقول فجأة، بينما سالت القهوة متقطرة في الفنجان، ماذا تعني بكلمة خسارة، سألت مارا. أوه! قلت أنا، لا أقصد شيئا، وأوقفت عمل ماكينة القهوة. في الحقيقة خســارة أننا لم نعد نحب بعضنا كما في الماضي.

عندما كنت أريد أن أقترب منها، كانت لا تتقبل هذا الاقتراب، وكانت تعبر عن هذا إما عن طريق الإشارات وإما بالكلمات. كان يحس نفسه دائما في دور المتوسل، هل تعرف هذا يا أبي العزيز؟ بطريقة أو بأخرى لابد أن الذنب ذنبي. مرة ثانية يلمع البرق من بعيد، أعتقد أنه الوميض فقط، الصاعقة الرعدية الحقيقية لم تبدأ بعد.

اســتمر ڤالتر في الســير حاملا أبيه علــى ظهره ورأس الأب مستند على كتفيه، استمر في السير في ممر عبر الحقول صاعدا في اتجاه زيورخر أوبرلاند على البحيرة. ومازال يتحدث إلى الأب، مكمــلا الحكي، كيف كان الأمر يبدو، لو أنه حقق رغبته الأخيرة: ربما صعدت إلى الترام، ووضعت جرة الرماد بجانبي على الأرض، ولكني أحسســت أن تصرفي هذا غير لائــق، ربما وضعتها على المقعــد بجانبي، دون أن يلحظ أحــد، لكنني في النهاية قررت أن أضعها فوق ركبتيّ وقبضت عليها بكلتا يدي. تيار هواء خفيف كان سيجفف العرق على جبين المسافرين المتقاعدين.

في المقعد الأمامي كانت ستحاول أُم الإجابة على أسئلة طفلها بصبر. وأراد بعدها شاب أن يصعد إلى الترام حاملا جهاز راديو

تحت ذراعه، وللحظة بقي واقفا على سلم الترام دون أن يصعد، وأدار صوت الموسيقى عاليا، لعن البنوك بصوت عال، وشتم بابا الفاتيكان، وفي النهاية صعد إلى الترام، وأكمل لعناته. صرخ، وأدار الصوت بدرجة أكبر، نظر المتقاعدون بخجل إلى الأرض، أحدهم أراد بشجاعة أن يتجه إلى هذا المزعج، لكن زوجته شدته من الأكمام.

بدأ الطفل في البكاء، جلس الشاب واستمر في صراخه وأخرج ما في داخله من خطب مليئة بالكراهية، الكل نظر بسخط، ربما كان الشاب ثملا، شيء ما ليس على ما يرام معه. قلت في نفسي، فقط لا تنظر إلى هناك وإلا وقف واتجه ناحيتي. إن التقاء نظرات العيون يجذب مثل هذه النماذج، إنهم يشعرون أن أحدا يتحداهم، في المحطة الثانية صعد اثنان من الهنود الحمر البيرونيين بعباءتيهما الملونتين، من موسيقيي الشوارع، كانا يريدان القيام بأداء أغنية، لكنهما لم يحاولا، بسبب الضجيج الصاخب، لصوت الراديو، حتى مداعبة أوتار الجيتار. أدارا وجهيهما ثانية ناحية الباب كي يتمكنا من النزول في المحطة القادمة، لكن الشاب الذي يحمل الراديو اكتشف وجودهما وأمطرهما بوابل من الشتائم. آمل ألا يفهما اللهجة، فالهنود الحمر في الأساس أناس مسالمون، لا يمكن لأحد استفزازهم بسهولة، لكن المتقاعد العجوز الذي أراد أن يتدخل من قبل، استطاع الآن أن ينتزع نفسه من زوجته، ووقف أمام الشاب الغاضب وطلب منه بلهجة حادة أن يخفض صوت الراديو العالي وأن يتوقف عن شتائمه. فكرت في نفسي، أنا لا أستطيع حتى التدخل.

بجرة الرماد التي بها رماد أبي فوق ركبتي، عاجز أنا تماما.. في سخونة المعركة يمكنني في الواقع أن أُسيء استعمالها كسلاح بأن أهز كيس البلاستيك في الهواء وكأنه حجر للرمي. شخص ما يجب أن يساعد هذا العجوز الشجاع، نعم إنه كان يمكن أن يكون أبي، إنه شخصية مشابهة وأنا سأمسك جرة الرماد بيديّ بقوة، وهذا السوقي، ربما السكران أو المختل عقليا سيقف فجأة ويصفع بكف يده العجوز المتقاعد على وجهه. أسمع صوت صرخة تأتي من فم، والتي غطت على صوت مكبر الراديو، لم تكن هذه إلا أغنية من موسيقى الراب، كان موقعها في سباق الأغاني على القمة. لكن الآن يجب أن أساعده، نبضات قلبي دقت فجأة بعنف، دفعة أدرينالين. لكن في نفس اللحظة رد المتقاعد الضربة، لم نكد نراها، قبضة يده اتجهت بسرعة إلى الأمام، بالضبط في المكان الصحيح، وقع الشاب وسقط في مقعده إلى الخلف، انحنى ولهث باحثا عن الهواء، أبطل المتقاعد الراديو وقال: هكذا! أكمل الطفل صراخه، وبدأ الهنديان في مداعبة أوتار الجيتار، وقاما بغناء أغنية تحفظها الأذن عند سماعها (جوانتاناميرا) وأنا قمت بتخفيف قبضة أصابعي التي أحكمتها حول جرة الرماد. مسحت زوجة المتقاعد جبين زوجها، والذي عاد ثانية للجلوس بجانبها، بمنديل منعش.

ومررنا بالترام على نصب ألفريد أيشر التذكاري في اتجاه هاوبت بانهوف، الشاب السوقي السكير أو المختل عقليا، تمكن من الوقوف مرة أخرى، أخذ الراديو وقام بتعلية الصوت لأعلى درجة وذلك قبل نزوله مباشرة، وكأنه يعلن احتجاجه الأخير. صوت الآلات الموسيقية العميق يدق بقوة، وصوت الراب يحدث

صفيرا وخشخشــة وضجة عالية وطرقا بشدة، وصوت الراديو الذي كان يشبه الصراخ، كان مسموعا حتى أثناء انطلاق الترام. هــل لك أن تتخيل، في أي موقف كان من الممكن أن تضعني فيه بطلبك هذا يا أبي؟ كان الشاب قد نزل من الترام، وكذلك المرأة مع الطفل كانا قد تركا الترام بسرعة.

الآن المتقاعـدون وحدهـم كانــوا مــا زالوا هم الجالســين، المسافرون الذين كاد الشاب أن يفسد يومهم: هذا هو الصحيح. يجب على المرء أن يدافع عن نفســه وألا يتســامح في مثل هذه المواقف! فجأة انتابني إحســاس، لكأنهم ينظرون ناحيتي، كأنهم يقصدونني، بالتأكيد فكروا في ذلك، إنه هو الأصغر ســنا هنا، كان عليــه أن يظهر بعض الشــجاعة. لماذا ينظــرون إليّ هكذا؟ ربما يعتقدون فجأة أنني مشــبوه، ماذا يحمل هذا الشخص فوق ركبتيــه؟ بالتأكيد هو عاطل عن العمل، ماذا يفعل في الترام قبل وقت الغذاء؟ كلا، ليس هناك شيء خطأ، كل شيء على ما يرام، أنا لم أقم بســرقة شــيء. فــي الحقيقة أنا لم أســرق أبدا في حياتي، انظروا هنا، إنها ليســت جثة طفل، إنها جرة رماد أبي، وأنا ابنه الشــرعي، انظروا على هذه الاســتمارة يوجد اســمه، تاريخ ميلاده، ويوم وفاته.

وها هي بطاقة هويتي، أنا أحمل نفس اســم العائلة، حتى إن اسمي الأول هو نفس اسم أبي، إنها أيضا ليست قنبلة، وكل شيء علــى ما يرام. كنت أخشــى فجأة أن يقف الرجل الشــجاع مرة أخرى ويتجه نحوي، وتمنعه مرة أخرى زوجته، أم أنني تخيلت كل هذا فقط؟ كلا، إنهم ينظرون نحوي كلهم، إنها نظرات المسافرين التقليدية بوجوههم المتشــابهة، إنها تعبيــرات وجوه المتقاعدين

الرياضية، إن ملابسي نظيفة، وسحّاب سروالي مغلق، أنا في الواقع لست أنيقا بالضرورة، ولكن تحت أي ظرف من الظروف لست متشردا، هكذا يسير في الشارع اليوم رجل في الخمسين من عمره في محيط معارفه. الشعر خفيف بعض الشيء، لكن لا يمكنني تغيير ذلك، لقد غسلت شعري في الصباح، ها هو، انظروا، إنه ليس دهنيا على الإطلاق، فهو يستقر خفيفا فوق المفرق رغم سخونة الجو، الآن كادت جرّة الرماد أن تنزلق من فوق ركبتي.

لماذا تحملقون فيّ بهذا الشكل، كان بودي لو أصيح عاليا. وكان الكل سينظر نحوي، هذه ليست قنبلة، وبالفعل كنت سأقوم بإخراج جرة الرماد من الكيس البلاستيك، والناس كانت ستميل إلى الجانب متفادية، وكانوا سيغطون وجوههم بأيديهم، بعضهم كان سينبطح أرضا كردة فعل، هذه ليست قنبلة، إنها فقط الجرة التي تحوي رماد أبي، أيها المغفلون! هل رأيت يا أبي في أي موقف كان من الممكن أن تضعني فيه، برغبتك الكريهة، وطلبك السخيف هذا من ابنك! ليست هناك نسمة هواء، يا له من اختناق في الجو، سيصير الطقس أفضل لو هبت عاصفة رعدية. درجة الصفر على ارتفاع 4000 متر، حتى على قمة جبل يونج فراويوخ بدأت الثلوج في الذوبان، وعلى قمة إيجر نورد ڤاند بدأ الماء يقطر من كتل الثلج المدلاة، إنها تقطر على أعناق متسلقي الجبال.

يا أبي العزيز لن يصبح من السهل أن تخرج من هذا الموقف، ببساطة أنت تلعب قليلا بالنار، وببساطة تحترق وتموت. لا يستوي الأمر هكذا، ماذا تعتقد في الحقيقة؟ أنا أريد استجوابك بصورة

صحيحة مرة أخرى، أنا الآن الآمر الناهي بشأنك، يمكنني انتزاع الحقيقة من أعماقــك، وأن أقيد حركتك، ولن تتمكن من الفرار مني أو الهرب بعيدا، الآن أنت تحت إمرتي. أنا أستطيع أن أبدأ فــي الركض، وأن أجري معك، حتى ينتابك الخوف والفزع وأنت فوقي، حتى تتأرجح هنا وهناك، ويندفع رأســك مجيئا وذهابا، حتى تتبول على نفســك في الســروال، في الحفاضات! أو ربما تجد أن هذا شيء مسلّ؟ هل تستمتع بالركض، ما رأيك، إلى أين ســتقودنا هذه الرحلة؟ هل تريــد أن تنزل ثانية من فوق ظهري، لقد فات الأوان. خطوة خطوة نقترب من الوصول. حتى في هذه الليلة ســوف نصل إلى الكوخ الأثير لديك، عندما تدور ماكينات الحصــاد دورتها الأخيرة، وعندما تســقط قطرات المطر الأولى الثقيلة من ســماء الليل، عندها نكــون بالفعل قد وصلنا، أليس هذا حقيقيا، أكان من الممكن أن يحدث هذا، لو كنت أحمل جرّة الرماد في الترام؟ كان المتقاعدون المسافرون سيتركون مقاعدهم، إنهم مازالوا مفعمين بالحيوية، كانوا سينظرون نحوي باستغراب، أما جرة الرماد فكنت ســأدخلها ثانية في الكيس البلاســتيك، وكانت ستستقر مرة أخرى فوق ركبتيّ المضمومتين، كل هذا كان مجرد تخيل فقط، إنهم لن ينزلوا من الترام بســببي، لكن لأنهم وصلوا إلى نهاية رحلتهم، أو أرادوا تغيير وســيلة المواصلات إلى تــرام الضواحي. كان ينبغي عليّ أن أمشــي هذه المســافة على الأقدام رغم ســخونة الجو، في أي وســيلة مواصلات عمومية، يعتبر أي فرد شــخصا مجهولا، الــكل يحملق فيك، وتصبح نهبا لخيال كل رجــل وامرأة، هذا الخيال لا يمكــن مراقبته، عندئذ تصبــح بلا حماية وتحت رحمة الآخرين، لكن الآن صرت وحيدا

وأستمتع برحلتي، برد جسمي قليلا من تيار هواء خفيف، وألقيت نظـرة وأنا في التـرام على المقاعد الزوجيـة المتراصة الفارغة أمامي، الأعمدة المصنوعة من الكروم، للمسافرين الواقفين تشع برودة مريحة وصرامة.

كنت على وشـك أن أرتكب أفعالا حمقاء، عندما كانت عربة الترام تلفّ في المنحنى بسـهولة ويحتكّ معـدن عجلات الترام بمعـدن القضبان محدثـا صريرا. أبي، هل يمكـن أن أكون قد صـرت مجنونا، وحيدا في الترام، فـي الطريق مع رمادك، في الطريق باتجاه تيفين برونن، نهاية الخط؟... مات فجأة، سـوف يقال وفاة قلبية، ما يسـمى الموت في لحظة، في الواقع هو موتٌ جميل في هذا العمر، لم يسـقط، ظل سـليما لآخر لحظة، لقد كان مغامرا، إنها حقا وفاة جميلة، مرة أخرى يلمع البرق، شـيء مدهش رؤية الحقول وهـي تُضاء فجأة، ربما يهطل مطر طويل بعد العاصفة الرعدية. بعد هذه الفترة السـاخنة يجب أن يبرد الطقـس ولو مرة، هـل مازلت يا أبي تتذكر، كـم كنت في حالة معنوية عالية في ذلك الوقت؟ كم كنت سـعيدا، عندما قمنا معا بالتنـزه في أحد أيام الصيف فـي زيورخر أوبرلاند، كنت تحس بسعادة جسـمانية، كنت تدفعني بكتفيك في بعض الأحيان، عن غير قصد، أثناء المشـي، كنت أحس بقميصـك الذي تفوح منه رائحة العرق، وبذراعيك وكتفيـك القويتين، اللتين كانتا مليئتين بالعضلات. نعم، لقد كنت أحس دائما أنك قريب مني، كعملاق، وأحيانا كنـت بعيدا جدا، كأحد أبطال أفلام رعاة البقر، والذي يختفـي في الأفق. كانت العلاقة الحقيقية بيننا دائما مصادفة. ربما للحظات، كما خلال تلك النزهة، تصير هذه السعادة القصيرة

الملعونـــة بين الأب والابن نوعا من أنـــواع الاتصال الكهربي. لكن أنا أريد أن أكمل نســـج قصتي، حكايتي، وماذا كانت ستصير مع جرة الرماد في الترام.

دخل الترام في الـــدورة الأخيرة بمحطة تيفين برونن محدثا صريرا، ووددت لو بقيت جالســـا، قلت في نفسي، وأظل مسافرا بالترام عبر المدينة من نهايـــة محطة إلى أخرى إلى الأبد. أقرأ كل لوحـــات الإعلانات، التعليمات، والملاحظات في عربة الترام، وأحفظهـــا عن ظهر قلب، أنظر من النافذة، وربما أفكر في أخي وفي الخطاب الطويل الذي قمت أنا بكتابته له منذ عشرين عاما. إنه لا يســـتطيع أن يكون معنا الآن، كي يلبّي رغبة أبيه الأخيرة، فإعاقته لا تســـمح له بذلك، والخطوات القليلـــة التي يخطوها بمساعدة آخرين لا تكفي. أنا لا أستطيع أن أدفع كرسيه المتحرك في مكان وعر مثل هذا وشـــديد الانحدار، فالحصى في الطريق سوف يعوق سير العجلات الأمامية الصغيرة، وأكون مضطرا إلى حمله، وهو الذي ســـيصبح عمره أربعين عاما. وكما كنت أحمله في الماضي عند الذهاب إلى المدرســـة، لقد كنت مضطرا لتركه عند الأم والتي هي الأخرى غير قادرة على المشـــي، وتجلس في كرسي متحرك أيضا منذ سنوات طويلة.

نعم، أخي العزيز: الشلل الدماغي، كلمة كان لم يكن مسموحا باســـتخدامها خارج أســـرتنا. نعم، كانت الناس تعتقد أن حجم رأســـه غير طبيعي، إنكم لا تفهمون شيئا، أنا أعرف الناس غير المثقفين، كانت الأم تصيح، إنه شـــلل حدث أثناء الولادة، ســـبعة أشـــهر تحملتِه يا أمي في الرحم، وذات يـــوم أحد تمت ولادته. هل يبقى مولود ذو ســـبعة أشهر على قيد الحياة؟ محتمل ولكن

ليس مؤكدا، قال الأب. كنا خائفين عندما لمحت نور الدنيا، كنتُ حذرا، ولذلك لم أعتبرك في البداية موجودا، لأنك من الممكن أن تختفي مرة أخرى، فقط لا لإقامة علاقة معه، في جهاز التحضين، كان شكلك يبدو كأحد أطفال الهنود الحمر الرُضع، كان لونك أحمر كسرطان البحر، فقط مغطى بمئزر أبيض. رأسك النابض كان هو المقياس لقدرتك على البقاء حيا، في الواقع كنت ممنوعا من زيارتك في مستشفى الأطفال، ولكن تم السماح لي بالزيارة كحالة استثنائية. من يدري، لقد كان من الواجب أيضا أن يرى يوما أخاه الأصغر.

إن مرض اليرقان غالبا ما يصيب حديثي الولادة، علاوة على ذلك فإن هذا لا يعني شيئا، إن هذا لا يعني شيئا، كنت أكررها لنفسي دائما. فقط لا تدعْ مشاعرك تجاهه تَنَمُ، إنه من الممكن أن يختفي في أي وقت مرة أخرى. ويأتي هذا الرأس الغريب الذي ولدتَ به، كالمنطاد، هكذا أطلقت عليه الممرضة، هل سيبقى على هذا الحال، أخا بمثل مؤخرة الرأس هذه، لا أريده على أي حال. لا أحد في فصلنا المدرسي لديه أخ غريب بهذا الشكل. لقد كان من الأفضل، لو كان قد مات في الحال. للأسف، قال في نفسه: لقد مات في سلام، لم يكن بالمرة إنسانا سليما. كلام فارغ، قالت الممرضة، سيعود الرأس طبيعيا بعد فترة من الوقت، هذا شيء عادي بالنسبة لحديثي الوّلادة.

كان من الممكن أن يكون موتك أفضل لي؛ شيئا مؤكدا إلى حد ما، من كان يستطيع أن يتنبأ بما سترتكبه من حماقات! كان من المحتمل أن يتقبل الوالدان فكرة موتك، فقط ستكون واقعة أليمة، قلت في نفسي آنذاك. وأوصد الأبواب في الترام، وأبقى

جالســـا فيه، سأســـافر من نهاية محطة إلى نهاية محطة، دائما نفس المسافة، مثلك يا أخي العزيز في كرسيك المتحرك في بيت والديك.. من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، من غرفة الحمام إلى غرفة النوم، مسار حياة مرسومٌ لك بالضبط، محدودٌ بسبب إعاقتك، بسـبب خوف وقلق الوالدين، وبسببك أنت نفسك وكل الأســرة. ليبقَ الوضع كما هو دون تغيير، ولا يحدث شـــيء غير متوقع. مجرد رحلة بســيطة إلى قلب المدينة تعتبر بالنســبة لك رحلة إلى المجهول، دائما نفس التجهيزات، نفس سائق التاكسي، نفس السيارة، نفس التسلسل الكامل للطقوس. إن موت الوالدين كان من الممكن أن يكون بالنســبة لك فقدانا لأساس الحياة على الإطلاق.

الآن وددت لــو قمت بتقليد أخي، وبقيت جالســا في الترام، وطــردت كل الــركاب الصاعديــن إليــه، وعطلــت كل الأبواب الأوتوماتيكيــة، محميا كما في حوض زجاجي، متنقلا بين أحياء زيوريخ السكنية. لم يعد ممكنا أن يحدث لي شيء، سأمسك بجرة الرماد فوق ركبتيّ، مثل أحد المقيمين في مستشفى المجانين وهو يمســك دمية الدب الوردية الخاصة به والمصنوعة من القطيفة. ســأكون محميا في عربــة الترام هذه كما فــي قفص فاراداي، لا شــيء يمكنه الوصول إليّ، ولا يستطيع أحد أن يمسّني، وربما أنــادي: لا تقتربوا مني! لا تضايقوني! لا تلمســوني! في الكيس الــذي أحمله توجد قنبلة. أنا على الطريق وســوف أحافظ على النظام نهائيا وعلى نحو حاســم. ينبغي أن يحدث شــيء يا أخي العزيز، العالم أصبح خارج الســيطرة، ويحتاج لفرقعة، كي تعود الأشياء إلى طبيعتها مرة أخرى.

سأسافر عبر تسفينجلي شتاد، ولنقل إن الوقت سيكون منتصف النهار، والشوارع مكتظة بالناس، يمشون يهرولون، يضحكون، مناظرهم عابسة، كما في متحف الشمع. الكل يتحرك وفق قواعد اجتماعية نفسية دقيقة كالعميان، سوف أفتح لهم عيونهم، مثل قاتل أوكلاهوما، مثل الأصوليين الدينيين، وكما منظمة الألوية الحمراء في الماضي، وسوف يقع اختيارهم عليّ، وسوف أنسف نفسي في الهواء مع القنبلة. سأقوم بتضحية كبيرة للغاية، دمي المُراق في كل مكان، وأشلاء جسمي وعظامي المتناثرة في كل اتجاه سوف تقوم بالخلاص وتفك التعويذة. أخي سوف يتمكن فجأة من استخدام كل طاقة جسمه، وقوة ذراعيه، ويديه ونقلها إلى عجلات كرسيه المتحرك وسوف يسرع في الخروج أخيرا من بيت أبويه، تاركا وراءه كل شيء، طاولة خشب الجوز من الخمسينيات.

وطاولة الطعام ذات المفرش البلاستيكي المزهر، والسجادة الفارسية المهترئة وفوقها آثار كرسيه المتحرك، وكمبيوتر آي. بي. إم وماكينة الطبع ذات الصوت المزعج والحركة الكثيرة، إنها بقايا العصور الحجرية. نعم، لقد تراكم شيء ما في نسيج جسمه عبر السنين، تكونت مادة متفجرة. ذهابا وإيابا، سوف أترك نفسي في الترام، ستكون الرحلة بلا نهاية، وزيوريخ هذه لن تنتهي أبدا. في الليل سوف أترك نفسي ليأخذوني إلى كراج نهاية الخط. سوف أرقد في الظلام بين المقاعد على الأرض مستلقيا، وعمال النظافة لن يكتشفوني، عليهم أن يتركوني وشأني، بمكانسهم الكهربائية ومنظفاتهم ومماسحهم وفوطهم القماشية.

فيمـــا كنت تفكر يا أبي في الواقـــع؟ وماذا كنت تقصد بكلمة واجب الابن هـــذه؟ هل كانت عاطفة مفاجئة؟ أم كانت مســـألة حقيقيـــة مثيرة للقلق؟ أم أنها رغبـــة أخيرة؟ وصية أخيرة؟ وهل يجب أن تتحقق على الإطـــلاق؟ ألا تكون أيضا لدى الابن بعض الحرية؟ أم أنك أرسلتني لهذه الرحلة بنوايا شريرة؟ أم كان ذلك أمـــرا تربويا؟ لقـــد دفعت بكل الاعتراضات جانبـــا أثناء نزهتنا في زيورخر أوبرلاند.. لم تقبل بأي شـــيء. حتى الإشارة إلى أن حفيداتـــك ربما يردن زيارتك فيما بعد، لـــم يغير هذا من رأيك شيئا. كنّ يردن معرفة أين الجد مدفون بالضبط، ولا يرغبن عند زيارة قبره في كل مرة أن يقمن بعملية تسلق للجبال تستغرق عدة ســـاعات. ماذا قلت؟ هل أسمع الآن أصواتا، أم بدأت في الكلام بالفعـــل مرة أخرى؟ هل يجب تنفيـــذ الوصية الأخيرة؟ أم يمكن الكذب فيما بعد، والغش؟ هل أقوم بتفريغ جزء من الرماد فقط؟ وأعود بالبقية لدفنها في مقبرة عادية، ألا يُســـمح لي بأن أكذب عليك فيما بعد؟ هل يجب أن أطيع أوامرك حتى بعد موتك؟ أين من الممكن أن يكون الاستقلال ممكنا دون نعمة الكذب؟

أنت نفسك جعلت حماتك تُحرق حينئذ، رغم أنها كاثوليكية، وكانت ترغب في أن تُدفن، لقد قلت إن هذا شـــيء غير صحي، وعلى أي حال هي الآن ميتة، ولم تعد تشعر بشيء. هل ترى؟ أنا أيضا في إمكاني أن أقول ذلك، هذا شـــيء غير وارد، لا للتبذير، قبر عادي لجرة الرماد. وأنا طفل، كنت ألحظ، ولحســـن الحظ، أنه كان يجب ألا أفعل كل ما كنت تأمرني به، لقد منحني الكذب حريـــة لا يمكن تخيلها، وكان بالنســـبة لي ضـــرورة للبقاء على قيد الحياة. هل قلت شـــيئا يا أبي العزيـــز؟ هل تبدأ مرة أخرى

في التحدث؟ أنا لا أسـمعك جيدا .. صـوت محركات ماكينات الحصاد يغطي على كل شيء.

أما أخي فلا يمكن أن يكذب، لقد حُرم من نعمة الكذب، فقط لديه الخيال. فـي البداية كان عليه أن يتعلم اللغة الألمانية؛ لغته الأم، ثم جاءت اللغات الأجنبية التي كانت بمثابة السلالم للخروج من هنا. والآن، للخروج من محدودية حياته اليومية، كانت عبارة عن درج إلى السماء، يصعد على تركيباته اللغوية، درجة بدرجة، وهناك في القمة لا يحس فقط بحريته، لكنه يخشـى أن يسقط إلى القاع، وأن يضيع في تجارب النصوص المكثفة كما في حياته الواقعيـة. لم تكن الجمل والكلمات مجرد إغراء له فقط، ولكنها كانت في ذات الوقت تجسـد له خوفـا وتهديدا، لقد صار أخي مرهف الشعور وذا روح حساسة.

هـل ينبغي أن أضع جرة رمـادك فوق طاولة مكتبه؟ أم خلف الكمبيوتـر بجانب وعـاء حفظ أقلام الرصـاص وأقلام الحبر ومشـابك الورق والمحايات؟ وهل سـيترك أخي جرة الرماد في موضعها أم سيقوم بتخبئتها؟ ربما في درج المكتب، بجانب الصور القديمـة؟ أم يدفعها بعيدا من فوق الطاولـة بحركة من ذراعه وبشـكل غير موقر، عن طريق الخطـأ أو متعمدا، وتتحطم جرة الرماد فوق الأرضية الخشبية خلف طاولة المكتب، وتختلط بقايا رمادك يا أبي بتراب الشقة. نعم، أخي لا يستطيع أن يكذب، لكن صدقه هذا يقبض روحي! هل قلت شـيئا يـا أبي العزيز؟ وهل سـتبدأ مرة أخرى في الكلام؟ أنا لا أسـتطيع أن أفهمك، عليك أن تتكلـم بوضوح، ماذا تريـد أن تقول لي؟ في النجوع المحيطة، والقرى، والأماكن السكنية بدأ الناس في الاستعداد للنوم، حملوا

كؤوس الجعة وأكواب الشاي من المناضد الصغيرة أمام جهاز التلفزيون، إلى المطبخ، وقاموا بوضعها في حوض الغسيل وفي ماكينة غسيل الأطباق. قاموا بحك بطونهم أو ظهورهم أثناء ذهابهم إلى غرفة الحمام أو قاموا بجولة في غرفة المعيشة، أو بحثا عن شيء ما، أو قاموا بتدوين شيء ما، وقاموا بتجهيز ملابسهم لليوم التالي. هل تتذكر يا أبي، قبل عشرين سنة، قمت بكتابة خطاب إلى ابنك الثاني، أخي.

وعلى نحو مفاجئ وضح موقفه لي، في يوم من الأيام بعد الظهر كنت نائما نوما خفيفا على السرير، وأسلمت نفسي لتدفق أفكاري الهادئ. وهنا توقف الفيلم فجأة، وحدثت هزة، وكأن شيئا يشبه آلة نقر معدنية ضخمة يقرع في أعماقي، وأحسست أن رأسي على وشك الانفجار بسبب الصوت، والموجات الصوتية سدت خلايا جسمي، حتى اليوم مازال دويها في أُذني: أخي العزيز، لا يمكن أن يستمر الوضع معك بهذا الشكل، هكذا لا، إن هذي ليست حياة بالمرة، أخي العزيز: بإصرار بقيت على قيد الحياة، ومن يوم لآخر كان عليّ أن أعتاد حياتك معي.

في تلك الأثناء كان موتك سيصبح حالة حزن حقيقية، ولم يكن متاحا لي أن أهرب من ذلك، لكني لم أكتشف أية تغييرات إيجابية برأسك الذي يشبه المنطاد، ربما يكون ذكيا بشكل بارز، عبقرية موسيقية؟ أو عالم رياضيات؟ أما مؤخرة رأسي أنا فهي مسطحة بعض الشيء، كان عليّ أن أعترف بذلك بصراحة، هل هو يجسد منافسة حقيقية لي؟ أم هو فرصة؟ لقد كنت أخي رغم كل شيء، ومن جوانبك الإيجابية صار في إمكاني تعلم الكثير منك، هل ستختفي عيوب الولادة المبكرة مع الزمن؟ هل

سيأتي يوم ما لا نجد فيك شيئا لافتا للنظر؟ هل سيصبح أخا طبيعيا؟ ولا يسبب لنا العار؟ أم سنظل كلنا في المستقبل ملفتين للنظر معه؟ من دونك كنا نبذل جهدا كبيرا حتى نصير أسرة عادية، مثل الآخرين، والذين كانوا رغم ذلك يحتقروننا.

فور ولادتك قاموا بلفك في مناشف دافئة، ونقلوك من قسم الولادة إلى مستشفى الأطفال. أول رحلة لك كانت في سيارة الطوارئ، في حوالي الثانية صباحا جاء الأب إلى المنزل وهمس: إنه ولد، كل شيء على ما يرام. بعدها تحدثنا في السرير عن أسماء محتملة لك. قبل امتحاني للقبول في المدرسة الإعدادية بشهر، قمنا بإحضارك من المستشفى. الحذر مع أخيك الصغير، قلت في نفسي، الحذر، ألا تتركه يقع، حتى وأنت تحضنه في السرير، لا تضغط عليه فجأة. انظروا كيف يبحث عن ثدي الأم، صاح الأب في سعادة غامرة، إنها غريزة طبيعية. وصدر الأم الضخم كان لا يمكن إغفاله تحت الثياب. وددت لو كانت الأرض ابتلعتني، لكن هذا أكثر شيء طبيعي في الحياة، سمعت أبي يقول، لا تكن خجولا بهذا الشكل.

هل تتذكر ذلك الخطاب يا أبي، وفيه كما كنت أعتقد في ذلك الحين، قد قلت الحقيقة دون رتوش، كان تأثير هذا الخطاب صفرا. لم يكن النقر يعبر إلى الخارج، وإنما كان فقط صوته في داخلي، لا شيء، ربما نغمة خفيفة، جدران سميكة عازلة للصوت ابتلعت صرختي هذه، واستمر الحال كما كان من قبل. من طاولة المكتب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمام. نعم، لقد انتهى أخي من دراسته الجامعية، وكانت درجاته جيدة. الآن، اعتقدت أنا، الآن، أنه يستطيع أن ينطلق. من طاولة المكتب

إلـــى طاولة الطعام، ومن طاولة الطعام إلى غرفة الحمام، ولكني كنت أتصور دائما شيئا مختلفا تماما له؛ حياة عادية، حياة عادية للغاية. هـــل تفهمني، مع زوجة وأطفال، ومســـكن خاص به، كل شـــيء كان يبدو لنـــا أمرا طبيعيا، كان بالنســـبة له حالة خاصة للغاية. واســـتمر الحال هكذا، ســـنة شـــجرية بعد سنة شجرية محسوبة رياضيا بدقة.

كل شـــيء تم ابتلاعه من خـــلال الجـــدران العازلة للصوت، والتي بناها الأب والأم والأســـرة. يا إلهي، لقد فعلتما كل ما في وسعكما؛ بلا كلل كان عمل الأم الجدير بالإعجاب، وأنت أيضا يا أبي العزيـــز، كان الاعتماد عليك طوال الوقت. كل منكما أعطاه ما يستطيع إعطاءه، ولكن دويّ النقرات لم يخرج منذ ذلك الوقت من رأســـي، أسمعه تارة بصوت عال، وتارة بصوت خفيض، وتارة أخـــرى يختفي تماما. والآن أخشـــى أن يـــزداد مرة أخرى. ربما في المرة القادمة لن أســـتطيع تحمل دويّ النقرات، المرة القادمة ســـيكون دويّ النقرات أعلى، دويّها ســـيصير بلا رحمة وخلايا جســـدي لم تعد مرنة، مع تقدمي في العمـــر أصبح فرو طبلتي رقيقا بعض الشيء. أخي ليس شخصية في رواية، إنما هو واقع، لـــم يتخيل أحد منا مصيره، فهو يعيش حياته دون كلل وبطريقته المتواضعـــة وعلى نحـــو معين في صمت راضيـــا وقانعا. هل هو ســـعيد؟ بالكاد يكون هذا ممكنا، أعتقد أنا من وجهة نظري.. لو كانـــت على الأقل لديه زوجة، نعم يا أبـــي العزيز، لو كانت لديه زوجة!

أشـــرت إليه مرة بمشـــاهدة فيلم «حب عاجز»، وكان رد فعله في ذلك الوقت وكأنني قمت بتقديم تقرير وثائقي له عن غربان

الجبال. لا أحد يعرض شيئا مثل هذا، قالت الأم، إن فيه إحراجا. الحب يجب أن يكون جميلا، فالجنس المجرد عبارة عن جمباز بذيء. ولدى المعوقين يكون تأثير الجنس المحض أكثر مرارة، الشخص المعاق في بدلته الأنيقة وفي دار نظيفة وجميلة يكون شخصا مختلفا، مقارنة بهذا البؤس المعروض على الشاشة لم يحدث شيء، واستمر الحال كما هو عليه، من طاولة المكتب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمام. زال الخطر، ومرة أخرى ابتلعت الجدران العازلة للصوت كل شيء، كأنها قطعة إسفنج بقوة امتصاص أبدية، لكن ذات يوم ستمتلئ قطعة الإسفنج بالماء عن آخرها، ولن يمكنها تحمل المزيد من الماء، وسيقطر الماء من الجدران، بلا انقطاع سوف يسيل ويسيل، وفجأة لن يكون إلا هذا التدفق، هذا السيل، هذا السقوط لكتل المياه.

لا يمكن إلقاء اللوم على أحد، لقد حدث ما حدث بكل وضوح، وتطور الحال وكأنه تفاعل متسلسل، وضد ذلك أنا أريد أن ألقي القنبلة، أريد أن يأتلف الحال بين ما هو واقع وما يمكن أن يكون.

منذ فترة ليست ببعيدة، قمت بتكسير البندق مع حفيدتك، يا أبي العزيز، هل تتذكر؟ وقمت بأداء تمارين الضغط الرياضية حوالي 24 أو 25 مرة. ضعفك المتزايد كان عبئا لا يمكن تحمله، وإهانة من العمر، رغم اتخاذك كل التدابير الوقائية، أيضا بالنسبة لي كانت بداية تدهورك الصحي عبئا ثقيلا.

ولم تتفق مع تصوراتي التي كونتها عنك! الذكاء، والقوة الجسمانية، صفات مميزة للرجال في عائلتنا، أيضا تحدي الأيام والتغلب على الصعوبات في الحياة، والدفاع عن النفس في

حالــة الضرورة، كان كل هذا هو شــعارنا، لكن التقدم في العمر مخادع. فعلى أقســاط تبدأ الحياة في الفرار، خط التقارب إلى الصفــر، وأخيرا تختفي الطاقة المطلوبــة للحفاظ على النظافة اليومية، والروتين اليومي في المنزل. وطرأ التغير، فبدأ الإهمال في المنزل، في البداية كان على نحو غير واضح، صار التراب في كل مكان، كان ذلك في الماضي مســتحيلا، فالأم كانت مهووسة بالنظافــة، وقاومت يائســة ضد هذا التدهــور، ولكن بعد فترة وجيزة كانت هناك كرات من التراب وشــعر السجاد خلف قطع الأثاث.

زاد المجهود للغاية، ولكن الطاقة لم تعد تسمح. ماكينة حصاد، هناك، هل تســتطيع أن تســمعني في وســط هذه الضجة؟ من الممكــن أن نبقى واقفين كما الأطفال، كما المتقاعدين أمام موقع بناء، نشــاهد كيف تغير الماكينــة اتجاهها، ربما يحدث أمر غير عادي، كأن تسقط المركبة مثلا أو تبقى متعلقة في حفرة. ها هي كشــافات الضوء موجهة إلينا، عليــك بغلق عينيك وإلا فلن ترى بعدها شــيئا، فالعين تحتاج وقتا كي تتأقلم ثانية، نأمل ألا يكون الســائق قد لاحظنا. كلا، إن ماكينة الحصــاد تلف، أغلق فمك وتوقف لحظة عن التنفس، وإلا فســحابة الغبار ســوف تجفف حلقك، أنا لا أريد أن تصاب بنوبة سعال وأنت فوق ظهري، يا لها من سرعة تلتهم فيها الماكينات حقول القمح!

هل مازلت تتذكر يا أبي، كيف كنتم تدافعون عن الوضع القائم بشكل عنيد؟ هل تتذكر؟ كان الشعار هو فقط لا تغيير، كل شيء نتركه كما كان؛ كان أهم أمر هو رعاية الابن العاجز، حتى التهاب مفاصل الوركين، لم يمنع الأم من الاستمرار في العمل، والعملية

الجراحية شيء غير وارد، بالنسبة لي هذا أمر خطير للغاية، أنا لا أريد تخديرا كاملا في مثل عمري هذا، بسبب ذلك تصبح كثير النسيان وربما تصير غبيا. أنا لا أريد أن يتم حقني في الظهر، فربما أُصاب بعدها بالشلل، فلست في حاجة إلى ذلك، لكنها كانت تتأوه عند المشي، فقد كان وزنها زائدا.

احترس، الماكينات، لقد صارتا الآن اثنتين، ربما تتوجهان إلينا، ربما تريدان دهسنا، كالمتهورين على الطريق العام، يريدون سحقنا، طحننا تحت العجلات العملاقة، التي يبلغ ارتفاعها قامة رجل، ربما يريدون تقطيعنا بسكاكين قواطعهم ذهابا وإيابا. كلا، إنهم ينعطفون ثانية، لقد كانت مصادفة، إنهم لا يتركون أحدا أبدا يثنيهم عن عملهم.

هل رأيت يا أبي سائقا؟ يبدو أن إنسانا آليا هو الذي يقود هذه الماكينات؟ ماكينات حصاد تُدار بواسطة كائنات غير أرضية؟ الآن عادت للاختفاء مرة ثانية في الظلام، إن ضجيجها عال كالطائرات النفاثة، ودويّه في الأذن لا ينتهي. تعالَ، نحن لا نريد مقابلتها في لفتها القادمة.

التجديد في البيت إذا كان غير وارد، كانت تكلفته مرتفعة الثمن بالنسبة لك، والأم تفضل شقة جميلة بأربع غرف في طابق واحد وفي حالة ممتازة. أيضا لم يكن واردا تعيين عاملة نظافة في المنزل، هل تعتقد أنني أريد أن أشعر بالخجل، هل تعتقد أن أترك أحدا يدخل بيتنا غير المرتب؟ ماذا يمكن أن يقول الناس عني؟ حلقة مفرغة، تدهور دائم إلى الأسوأ، بعد ذلك تم إغلاق الغرف في الطابق العلوي، من الناحية العملية من الأفضل للأم أن تكون كل الغرف في طابق واحد.

الأم تنام بجانب المدخل، تماما بجانب الباب، هنا أشعر بأنني أكثـــر أمانا، فأنا بجانب ابنـــي إذا احتاجني، أما هو، أخي، فقد تحمل ذلك، لم يبد ولو مرة واحدة أنه غير ســـعيد، كان يتكلم مع الأم، ويتناقـــش معك يا أبي، يتدخل لتســـوية الخلافات بينكما، ويمنع وقوع الأســـوأ. بعد ذلك بدأ مفصل ورك الأم في التوقف عن العمل، وأصبح المشـــي يســـبب لها صعوبة كل يوم. رغم ذلك دارت عجلـــة الحيـــاة اليومية ولـــم تتوقف. أما بقيـــة العمل في البيت فتم تجاهله تدريجيا، من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، مـــن طاولة المكتب إلى غرفة الحمـــام، ومنها إلى طاولة الطعام، لا شيء يمكنه تعطيل هذه الطقوس. كنتم كالكواكب في مساراتها، لكن لا يمكن اســـتمرار الحـــال على هذا المنـــوال، عليكم أخيرا الاعتراف بذلك. لا إقناع، لا غضب، لا رجاء. لا يمكن فعل شيء، والكواكب تدور دون خطأ في مساراتها، وفق قوانين رياضية.

الشجارات المســـتمرة أبقت أجهزتكم العضوية حية، ومنحت الأكسجين لمســـارات الدم العائلية. من طاولة الطعام إلى طاولة المكتب، لا يمكن اســـتمرار الوضع بهذا الشـــكل، يجب أن تفعلوا شيئا!

ماذا ســـيقول الناس؟ أنا لا أبالـــي لقول الناس، صاحت الأم، أنـــت الذي كنت دائمـــا تهتم بما يقوله الناس، أنـــا أريد بالفعل، لكن أبـــاك! أنا أريد بالفعل، لكن أمك! إنـــه مأزق كبير وفظيع. كما لو كان عليك أن تثبت شيئا للحياة. في وقع تأثيرها، بمنطق عائلي خاص، في علاقة المجانين الثلاثة. كما لو كان يجب عليكم إثبات أنكم الأقوى في مواجهة القدر، في مواجهة الموت. ودارت كالكواكب في مساراتها دون هوادة، ودون رحمة.

وأنا أيضا ســوف أظل جالسا في الترام، حاملا جرة الرماد، مــن تيفين برونــن إلى بارادا بلاتــس، ومن بــارادا بلاتس إلى ألتشيتن، ومن ألتشيتن إلى بارادا بلاتس، ومن بارادا بلاتس إلى تيفين برونن، وجرة الرماد فوق ركبتيّ. ســوف أواجهكم وسوف أتحداكم بعمري ذي الخمسين عاما، فأنا أستطيع إنجاز ذلك في نهاية المطاف.

ســوف أكون ندا لكم، وسوف أتحداكم، ولن أتمرد بعد اليوم، وســوف أتأقلم مع منطق العائلة، وأنضــم إلى نظامكم، أم أقوم بإلقاء القنبلة؟ وددت لو دمرت نظام الأســرة كله، وقمت بإنشاء صفحة بيضاء، لقد فعلتم كل شيء للابن العاجز، ماذا كان يمكن أن يحدث من دونه؟ هل كانت الأشــجار ســتنمو إلى الســماء؟ أخــي العزيز: لقد كنــت أنت هنا، وفي هذه الأثنــاء، تعلمت أنا كيف أكتم نفَســي جيدا، ولكني لم أستطع إنكار وجودك وشكلك المستفز وأنت رضيع. لماذا عيونه زرقاء وعيوني أنا خضر؟ هل كل الأطفال في هذا العمر لديهم حوَل؟ أم أن هذا ســيبقى؟ تراجع شــكل رأسه، الذي يشــبه المنطاد، بعض الشيء، لكن لم يتراجع الحوَل، لا نريد أن يكون أحد أفراد أســرتنا أحول العينين، حتى لو كانت الأم ترى أن النساء الحُوّل جذابات بالنسبة للرجال.

فهــذا فقط حول عينَي رضيــع، عندما بدأت أنا بالمدرســة في تعلــم اللغة اللاتينية، كنت أنت تتعلم الابتســام، اثنا عشــر عامــا، تقريبا ثلاثة عشــر، فرق العمر بيننا! جالســا في زاوية علــى الأريكة، تم وضعك بلطف، وتم تصويــرك من قبل مصور فوتوغرافــي. كانت الصورة التي يظهر فيهــا حول عينيك، هي بالــذات أجمل صــورة، قال الأب، فأنت تبدو فيهــا مغلوبا على

أمـــرك. يمكن لنا رؤية ذلك بوضوح، كيف أنه في احتياج لنا، في السـراء والضراء، رغم ذلك فإن الأم كبّـرت صورا أخرى. وأنا بـدأت أعتاد على أن لي أخا أحول. عندمـا تضع اليوم النظارة الشمسـية فوق عينيك، لأن ضوء النهار يسـبب لها آلاما، ولأن ذلك ينزع منك الإحسـاس الضروري بالأمـان، وعندما تتحرك فجأة أثناء الحديث بكرسـيك، عندئـذ لا يمكنني تفهّم موقفك دائما، وغالبا ما تتسـبب في إثارتي؛ أنت تُظهر شـيئا، أريد أنا خلف توتر أعصابي وسـخريتي إخفاءه؛ ألا وهو الخوف، الخوف المجهول المنتشر في كل مكان.

هروبك المحدد إلى غرفتك المجاورة، ودفعك المتشنج لعجلات كرسيك المتحرك، ورجوعك إلى طاولة مكتبك، كل هذا من شأنه أن يغضبنـي حتى وقت قريب، وأثناء ذلك كانت مسـاحة الحياة بالنسـبة لك تضيق من يوم لآخر، قريبا كان طريقك الوحيد هو المسافة بين غرفة النوم وغرفة الحمام، كان كل تغيير يغرس فيك الخوف، وفجأة جاء سائق تاكسي جديد، يقود بك السيارة، وأنت تخشى الأسوأ في الطريق إلى المدرسة، أن تصاب بالإغماء مثلا، قلت لي ذلك ذات مرة أو أن تفقد الوعي.

لقد كنت تبذل قصارى جهدك دائما، لئلّا يحدث ذلك. الأسرة كانـت تصور لك العالم الخارجي وكأنه منطقة ملغومة، فالخطر يتربص خلف كل جديد، الأمان تجده فقط في المنزل الموثوق به، أما في الخارج فيجب أن تتوقع الأسوأ دائما.

هل تتذكر تلك الرسـالة يا أبـي؟ قبل أن نأتي، نحن الأطفال إلـى الدنيا، كنتما، أنـت وأمي، زوجين جذابين، موضع حسـد الجميع، في الصور القديمة ذات الحواف المسـننة، أثناء البيات

فـــي الخيام، وعلى قمة الجبل، وزحافـــات التزحلق على الجليد فوق الأكتاف، مبللـــين بالعرق، وذوَي جمـــال، مفعمَين بالحيوية والنشـاط، مقدامين. زوجان جديدان، نمط حياة جديد، والمستقبل كان ملكا لكما، كانت الحرب العالمية الثانية على وشـــك الانتهاء، ثم جاء الابن الأول؛ بداية جديدة كأســـرة مرة أخرى. ربة المنزل الســـعيدة في المنزل تغني، مهندس الإنتاج الطموح فوق السقالة، ومع العمال في المكتب أمام طاولة الرســـم، لا شيء يمكنه تدمير الأســـرة السعيدة، ثم في عمر الســـابعة والثلاثين، تم بناء منزل الأســـرة، وقمت بزراعة أشجار وشـــجيرات في صفوف، وعمل حديقة جميلة، تم شراء أرنب، وعمل حظيرة من الخشب.

كم كنت ســـعيدا ذات يـــوم عندما وجدت أنثـــى كلب من نوع البوكســـر تقف أمامي في الممر، كانت تريد دائما أن تهرب، ومن خلال ضرباتك لها بالسلســـلة المصنوعة من الجلد، كنت تمنعها من ذلـــك. لقد قرأت في كتاب قديم عن الـــكلاب، أنه يجب أن تكون صارما مع الحيوانات، وإلا فســـتفعل بك ما يروق لها، بعد وقت قليل أصبح من الصعوبة السيطرة على أنثى الكلب، فعندما يكـــون الباب مفتوحا قليـــلا، كانت تضغط نفســـها للخروج منه وتهرب، وتبقى عند أناس غرباء، وكان يتحتم إعادتها، وكانت تئن عندما تراك؛ حينها قلت إن هذه ليســـت كلبة، وتم إبعادها، لقد كنـــت تتصبب عرقا عندما كنـــت تعمل في الحديقة في عطلات نهاية الأسبوع، وعندما كان يتحتم عليك قطع الشجيرات العالية بمقص الحديقة.

كنت تجعل من شجيرات عيد الميلاد الصغيرة شجرات كبيرة، ومن شتلات القيقب شجرة كبيرة، لقد كنت تقص العشب المرتفع

حتـــى الركبة بمقص الحشـــائش اليـــدوي، وعندمـــا كان محور المقص يصيبه العطل، كنت تغضب وتثور، وقمت بشراء آلة لقص الحشـــائش ذات محرك، وكان قرصها الدوار ذو السكين يحتك بالحجارة محدثا صريرا عاليا، ومرة أخرى تغضب وتثور.

شـــعراتك القليلة كانت تلتصق برأسك مثل رضيع، كنت تعمل مثل مجنون، وتشـــرب ليتـــرات من القهوة الباردة، وتحشـــو في جوفك شـــطائر الخبز المحشـــوة وتعود إلـــى العمل وأنت تمضغ الطعـــام، كنت تكاد تنفجر من الحيوية. نعم يا أبي العزيز، أنا لم أتحمل شيخوختك، سقوطك المفاجئ، ضعفك، وموتك المقترب.

لن أنزل أبدا من الترام، ســـوف أستمر مسافرا فيه، في هذه العربة النظيفـــة، ذات الأرضية القوية التي تتحمل مئات الآلاف مـــن الأقدام، هـــذه الأرضية التي يتـــم تنظيفها كل يـــوم بالمواد الكيميائية الحادة، وهذه الجدران المنظفة برغوة الصابون، هذه الكراســـي والمقاعد التي تُطهر من الجســـيمات الترابية القذرة، حتى مسام الأغطية المصنوعة من النظبياون وتُعقم. أريد أن أدور بالترام في الشوارع، نظيفا، معقما، محفوظا أمام الحياة، وأمام الزمن، ويضيء الترام في الليل ويســـافر الجنون معي، سيجد له مسكنا، كالجنّي في المصباح، ســـوف أنزع مقابض أبواب الترام الأتوماتيكية، وكل شيء سيكون مغلقا بإحكام.

هنا يســـافر الجنون الصغيـــر، في هذه الزنزانـــة الانفرادية، ســـتصبح وسيلة جذب ســـياحية مثل ترام الحفلات. ممنوعا من الخوف ومحبوسا في ترام زيوريخ، التابع لهيئة مواصلات المدينة، سأضغط أنفي على زجاج النافذة البارد، متجهم الوجه، ومتنفسا على الزجاج، وسأكتب فوقه بإصبعي، وأعطيكم علامات ورسائل

مشـــفرة، ناظرا إلى الخارج باستمرار، على المبنى المهيب لجريدة نويا زيورخر تسياتونج وعلى مبنى التخطيط العمراني في بيلفي، وعلى دار الأوبرا ومروج زيكســـلويتن، وما تـــزال جرة الرماد فوق ركبتيّ. نعم يا أبي، ســـوف أنثر رمادك، وسوف تكون خدمة الحب الأخيـــرة، عفوا، ســـوف يطير الرماد وســـتهب ريـــح خفيفة، من الأفضل لو كانت ريحا شـــمالية، بعيدا عنـــي، فالمنحدر يتجه إلى الجنوب، وإلا فإنني ســـأجد غبار الرماد على شـــفتيّ، وفي أنفي، وفي جهازي التنفســـي، وفي فمي، وسوف تصطك أسناني عندما أخفي دموعي، وعندما تســـكن الريح، يتحتم عليّ الرجوع بالجرّة في يدي إلى الوراء وبقوة أقوم بتفريغها في الهواء، حتى لا يسقط الرمـــاد مباشـــرةً أمامي، وعلـــى قدميّ ويبقى عالقا بشـــجيرات الخمان، والتي تتشبث بجذورها في التربة القليلة على المنحدر.

سيبقى الرماد عالقا، كما في مواقف السيارات، عندما يقوم قائدو الســـيارات بتفريـــغ منافض رماد الســـجائر، وأيضا على العشـــب بين المســـتطيلات المطلية باللون الأبيـــض. ربما يتوقف الرماد للحظة في الهواء، ويحجب الشمس مثل سرب من الجراد، وماذا ســـوف أفعل بالجرة الفارغة؟ هـــل ينبغي أن أرميها خلف الرماد؟ أم أنزل بها من فوق سفح الجبل وأضعها في البيت؟ في مـــكان ما في القبو بجانب أواني الزهور؟ أم ينبغي أن ألقيها في القمامة؟ والآن تتشـــبث بي مرة ثانية يا أبي العزيز، أنا لا أتحمل ذلـــك، فالجو قائظ إلى حد كاف، أنا مشـــتاق حقيقة إلى المطر. هل تتذكر يا أبي؟

وجاءت النهاية على نحو مفاجئ؛ الأم لم يعد في استطاعتها أن تقف على قدميها، الســـاقان صارتا متورمتين، كل لمسة كانت

تؤلمهما، وأصبح المشي مستحيلا. وتوقفت العجلة فجأة عن الدوران في عصر يوم صيفي عادي، قرب المساء تقريبا، بدأت الشمس في الانحدار من خلال النوافذ الزجاجية غير النظيفة؛ لم تعد الأم قادرة على المشي إطلاقا، هل سقط النجم من مساره؟ من طاولة المكتب إلى طاولة الطعام، من طاولة الطعام إلى غرفة الحمام، هذا الطقس تلاشى بضربة واحدة. وكل التبريرات مثل: سوف يمرّ الأمر بشكل ما، إن الأمر ليس بهذا السوء، ممّ تعانون في الحقيقة؟ توقفت فجأة. قال الطبيب، لا يمكن استمرار الوضع بهذا الشكل، الأوردة، العضلات، المفاصل، كلها أصبحت متورمة، الأم، قلب الأسرة، توقفت عن العمل. وأصبحت مهددة بالذهاب إلى بيت المسنين، ودار الرعاية، حيث الوجبات المتشابهة والأفواه المفتوحة والأيادي المرتعشة والحساء المسكوب وسيلان اللعاب.

وأخي أصبح منفصلا من يوم لآخر عن الأم، وأيضا هو مهدد بالذهاب إلى بيت المسنين ودار الرعاية، رجل سليم في الأربعين من عمره، ذات يوم سيموت دون أن يعرف معنى الحياة الحقيقية. سوف يموت قبل أن يحضن امرأة، من هو المسؤول عن ذلك؟ في حين إني كنت أتمنى له حياة عادية. إن إعاقته كبيرة، ولا يمكنه المشي، ويعتمد اعتمادا كليا على الكرسي المتحرك، ويحتاج مساعدة خارجية لبعض الأعمال المنزلية، لكنه ذكي، وكان من الممكن أن يكون أكثر استقلالا.. من الممكن أن يحصل على زوجة، ليست لديها مشكلات مع إعاقته.. وتقدّر مثل هذا الرجل بالذات، الذي هو محبوب ومتميز، ومن الممكن أن يسكنا في مسكن معدّ للمعاقين، ويكون لديهما أطفال، ربما

ابن وابنة، وأن يعمل في وظيفة مناسبة، في مكتبة كبيرة مثلا أو ربما محررا، وأطفاله سوف يحبونه، ويحترمونه، لأن لديه أسلوبا مسالما ومرحا. وذات يوم أحد في الصيف سيذهبون إلى حديقة مطعم لتناول الطعام، ومفرش مائدة الطعام الأبيض سوف يبهر عيونهم، وسوف يغمزون بها، ويطلبون مظلة واقية من الشمس.

تقريبا أسـرة متوسطة المستوى عادية، الأب في الواقع مقعد لكنه ذكي للغاية وأنيق، واستطاع أن ينجز شيئا في حياته، فهؤلاء النـاس إما أن يكونوا سـاخطين أو قادرين علـى إنجاز أهداف عظيمة، وكان سيسـاعد أطفاله في الواجبات المدرسية، ويكون مسـتمعا عطوفا؛ يفرح لنجاحاتهم ويبدي ابتسـامة خفيفة عند فشلهم، وكان بكل تأكيد سيعيش حياته، وربما توقف أحيانا عند طاولة مكتبـه قليلا، ينظر من النافذة، حين ينزل ابنه مسـرعا على السلم حاملا حقيبته الرياضية، ربما يظل متأملا للحظات، وربما حزينا. سـيكون محترما، وعضوا نافعا في المجتمع، وربما حتى كان عضوا في رعاية المدرسة أو مجلس البلدية.

لكنه الآن أصبح مهددا بدخول بيت الرعاية أو بيت المسـنين. ربما كانت هذه الهموم لا أسـاس لها من الصحة، وربما سـارت الأمـور كما كانت من قبل، واسـتمرت دائما؛ مـن الطاولة إلى السرير ومن السـرير إلى الطاولة. وربما ترك نفسه ليعيش في دار الرعاية بطريقة مشـابهة، نـادرا ما تمرد الأخ ضد مصيره، دائمـا على ما أعتقد كان يسـتطيع التأقلم، ربما مرة أو مرتين، صـرخ أو انفجر وقام بقذف قلم، لكن غيـر ذلك لو كنت مكانه لانقضضت عليكم، ومشـيت على أربع، وقمت بعضّكم مثل كلب مسـعور، وكنت ما تركتكم، كنت جعلتكم مسؤولين عن كل شيء،

وكنت مزقت سريري بسكين، وانتزعت كل الصور من الجدران، وقمت بإزالة كل الرفوف، وألقيت الزجاجات على النوافذ، لكنت قد صرخت وناديتكم جميعا في وسط الليل بصوت مثل حيوان جريح، لكنت سرقت النوم من أجفانكم، ولكنت ظللت أصرخ حتى يوم القيامة.

وكنت قد أضرمت النار في غرفتي، وأصبحت مشعلا للحرائق، مثلك يا أبي اليوم، لكنت صرت الشخص الذي كنت تتخوف في الماضي أن أكون، عندما كنت ألعب بأعواد الثقاب وأنا طفل. هل تستطيع أن تكون أكثر هدوءا يا أبي؟ لماذا تتمايل دائما بوسطك، ألا تلحظ أنك تجعلني أفقد توازني وتزعج إيقاع خطواتي؟ سنحتاج قليلا من الوقت حتى نصل إلى الكوخ، وهناك سوف تجد راحتك، سوف أجلسك في كرسيك أمام النافذة، حتى يمكنك رؤية مناظر الطبيعة في الصباح الباكر، لن تشبع من النظر إلى التلال المليئة بالأشجار، وقمم الجبال، والوديان المنبسطة، سوف تترك عيونك تتجول في الأفق، حتى معالم جبال الألب التي يلفها الضباب.

هل مازلت تتذكر كيف كنا نعمل سويا لبناء هذا الكوخ؟ أنت لم تكن تعتقد أنني قادر على عمل مثل هذا؟ أنا مازالت أتذكر ذلك جيدا، كيف كنت تمسح عرق وجهك بظهر يديك، وكيف كنت تجلس للحظة لتلتقط أنفاسك. كنا نعمل بإصرار حتى بعد حلول الظلام، بمرور الوقت أصبح العمل الصعب سهلا، وذلك لأننا أصبحنا فريقا منسجما، مرات قليلة، قضينا الليل هناك في العالي، في الهواء الطلق، وعند الفجر كنا نقوم بعمل القهوة على النار، ثم نعود بعدها إلى العمل. أعتقد عندما كنت آخر

مــرة هناك مع مارا، تركنا علبة نســكافيه مليئــة، والتي يمكننا بالتأكيد اســتخدامها، كذلك علبة من لبن القهوة المكثف، نعم يا أبي، سترى أنه في إمكاننا إنجاز ذلك.

سوف نســكن هنالك ســويا، مازال لديّ الكثير من الأسئلة، ماذا كنتما تفعــلان حقيقة في الماضي أنت وصديقك، الطبيب؟ لماذا كانت تتكاثر الأسماك في أحواض السمك والبرمائيات في الأحواض الزجاجية؟ هل قمتما بإجراء التجارب في القبو الذي أعيد بناؤه؟ هل قمتما بوقف نمو الشراغيف من خلال معالجات مناســبة؟ هل قمتما في الورشة الصغيرة التي كانت تقع مباشرة بجانب قبو النبيذ وبجانب غرفة الغسيل والتي كانت بها عصّارة مــن النحاس في ذلك الوقت، هل قمتما بلعب دور فرانكشــتاين قليلا؟ مــاذا كنتما في الواقع تفعلان بعد الحفل المســائي، يوم الأحد، عندما خرج الآخرون للتنزه، أو كانوا في الكنيســة أو في ملعب الرياضة؟

كان وجهك شاحبا، وكنت تشبه حيوان السمندر الذي لا يرى ضوء النهــار أبدا، هل كان ذلك مجرد هوايــة؟ أم كنتما بالفعل تقومان بالبحث؟ فــي ذات الليلة، عندما كان الابن الأكبر يحمل أبــاه فوق التل في زيورخر أوبرلانــد، كان الابن الأصغر والمعاق جسديا يريد الخلود إلى النوم، عندما شعر بحاجته للتبول وظن أن هذا الإلحاح سوف يوقظه أثناء الليل وقد يصبح مزعجا. يبدو أنه أكل الكثير من سلطة الذرة وشرب ماء معدنيا بالإضافة إلى القهوة، إن كل هذا ينشــط المثانة، كانت الأم تقول له ذلك دائما، لقد قلت لك دائما ألا تشــرب الكثير قبل الذهاب إلى الســرير، وعــادة هو يحافظ على ذلك، لكن اليوم الجو كان حارا على غير

المألوف، وشفتاه كانتا جافتين، نادى: أمي، لأنه يحتاج مساعدتها كي ينهض، فهو لا يستطيع الذهاب لدورة المياه بمفرده. يا أمي! ولكن يبدو أن الأم قد نامت، لأول مرة تصبح الأم مرهقة بعض الشيء منذ عيد ميلادها الثالث والثمانين.

وكرر النداء: يا أمي، هل يمكنك من فضلك مساعدتي! مرة أخرى لا شيء. إنه لا يريد إيقاظها لسبب غير ضروري، وفكر في نفسه، ربما يمكنه النوم بمثانة ممتلئة، عليّ فقط ألا ألح على ذلك بإصرار، فالأمر ليس عاجلا، فربما يتراجع الإلحاح ثانية، لكنه أحس مع ذلك بالقلق بعض الشيء. في العادة هي تستيقظ عندما يناديها في المرة الثانية، فإلى حد ما نومها خفيف، واعتادت على إيقاظه لها، لكن مثانته لم تهدأ.

يا أمي، صاح الآن بصوت عال وواضح، أمي! وصرخ في النهاية، مرة أخرى لا شيء، توقفي يا أمي عن هذا هل تمزحين؟ أمي، هل أنتِ في حالة سيئة؟ طوال حياته كان يخشى هذه اللحظة، وكثيرا ما حاول إزاحتها جانبا. لا تفكر في ذلك، فقط لا تفكر في ذلك، وإلا ربما حدث، لكنه كان يعيش كما فوق بركان، يوما ما سوف تبدأ الأرض في الاهتزاز، وسوف تترنح الجدران، وسوف تحدث شروخ، ويتساقط الطلاء، وتسقط الصور من الجدران، ويقع الأثاث، وتنهار الأسوار.

الآن حان الوقت، وكان مختلفا للغاية عما كان متصورا. بكل هدوء، كان فقط يسمع نبضاته، يا أمي! صرخ مرة أخرى، لا شيء، ساد الصمت، مد يده نحو الهاتف اللاسلكي فوق الطاولة الصغيرة بجانب السرير، كان مرتبكا وبحركة خرقاء انزلق الهاتف من بين يديه وسقط فوق الأرض الخشبية، رفع نفسه

عاليا بعض الشـــيء وتشـــبث بيديه بحافة الفراش، وشد جسمه إلى طرف الســـرير وتحسس مكان الهاتف، الذي أصبح لا يعمل، فالجهاز الحســـاس ومن خلال الضربة القوية على الأرض، صار معطلا، لم يعد في إمكانه طلب نجدة، يا أمي! صرخ مرة أخرى، ربما كان كل شيء فقط مجرد كابوس، لا شيء.

لم يجرؤ حتى على إشـــعال الضوء، ففي الظلام كان يشـــعر بالأمان، أما في الضوء الســـاطع فربما يكتشـــف على نحو غير متوقع ما يمكن أن يجعله يشـــعر بالرعـــب والفزع، فليمكث في الظلام، وكأن شيئا لم يكن، فليبق الأمر سرا، ولا تُكسر التعويذة. مـــرة أخرى تناول الهاتف اللاســـلكي، لكن الجهـــاز ظل صامتا، كان يســـمع نقرات المنبه الكهربائي، وصوت طنان الثلاجة قادما من المطبخ، وطقطقة خشب ســـقف الغرفة، كان الوقت ما يزال العاشـــرة والربع ليلا، وقام بالنداء مـــرة أخرى، وبتردد: يا أمي! بعد ذلك أشعل الضوء في غرفته، ورأى أن شيئا لم يتغير، ونظر بطرف عينه إلى الباب الموارب في الناحية الأخرى، هناك، حيث مرقد الأم، لكنه ســـرعان ما أشاح وجهه بعيدا في الحال. عليه الآن أن ينهض، أن يفعل شيئا، مرة أخرى رفع نفسه عاليا، وحاول إنزال ساقيه من فوق حافة السرير إلى أسفل، ساقيه المتقلصتين بفعل توتر العضلات.

تشابكت يداه مع غطاء السرير، وجذبه فوق رأسه عن طريق الخطأ، وعندما لم يســـتطع فورا إزاحته، تملكه الرعب للحظة. تمكن أخيرا من أن يخلّص نفســـه، وأن يضع قدميه على الأرض، وأمسك عمودا تم تركيبه خصوصا له، محاولا رفع جسمه عاليا، كـــي يصبح في وضع الجلـــوس، لم يكن أبدا فـــي حياته مجبرا

علــى أن ينهض بمفرده، كان هناك دائما من يقوم بمســاعدته، لم يحس أبدا بالتعاســة أو أنه معاق، طالما الأم هنا، ما لم يمكنه إنجازه، كان هناك من ينجزه له في الحال. لم يشــعر بأن شــيئا ينقصــه، لكن الآن وفجأة، كان عليه الاعتماد على نفســه، تمكن مــن النهوض، وعليه الآن أن يثني وســطه إلــى الأمام، وأن يمد ذراعيه ليصل إلى كرسيه المتحرك. أخيرا استطاع أن ينجز ذلك، أمســك بمقبض الكرسي، وقام بســحبه نحوه ودفعه إلى وضعه الصحيح، ثم شــد نفسه عاليا إلى العمود، وحاول أن يدير نفسه في اتجاه مقعد الكرســي، وببطء يستعد للجلوس، لكنه استطاع فقــط أن يصل إلى حافــة المقعد، وانزلق الكرســي بعيدا رغم فرامله المشدودة، تمكن الابن المعاق بفضل يديه وذراعيه القويتين من أن يمسك العمود بقوة وللحظة، لكنه دار عكس اتجاه عقارب الساعة وســقط على الأرض، حاول لاهثا، ولباسه مبلل بالعرق تحت إبطيه، أن يعدل نفسه على الكرسي، لكن الأخير كان أيضا على وشــك السقوط، كان عليه أن يعيد المحاولة بطريقة أخرى، عليه أن يجذب نفســه عاليا إلى العمــود، وأن يجلس ثانية على السرير، ومنه إلى الكرسي المتحرك.

أخــي العزيــز.. حتى لا تزعــج احتياجاتك أحــدا، عمل الآخــرون على ألا تكــون هذه الطلبات كثيــرة، كان عليك أن تنشأ في نظام قوامه الرضا وغير متأثر بالظروف الخارجية، كان غيــر مســموح أن يشــعر بأنه يفتقد شــيئا أو أن يدرك أنــه معاق، فمن الممكــن أن يصيبه رعب لو أنــه أدرك فجأة عجزه واحتياجه للمساعدة. لقد فرضوا عليك الجنة، سمّينا الاحمرار الذي كان يغطي نصف رأسك بقعة حمراء صغيرة،

ومع الوقت صار هذا اســـم الدلع الذي أطلقناه عليك: حبيبنا ذو البقعة الحمراء الصغيرة.

بمرور الوقت ســـيختفي هذا العيب الجمالي من تلقاء نفسه، إنها فقط كدمات، قالها طبيب أمراض النســـاء، كل شـــيء على مـــا يرام. في حين إن مجيئك كان بالمؤخـــرة عند النزول، أي أن وضعـــك في رحـــم الأم كان بالمقلوب، كان يجـــب أن يتم هذا في ذلك الحين، وبقيت لفترة طويلة تخضع للعلاج الإشـــعاعي، حتى يصبح الجزء الظاهر من البقعة تحت الأذن أبيض بعض الشيء، وماذا لو صار ذات يوم مثل الأب أصلع؟ نعم، ســـيكون حتى ذلك الحين قد عثر على امرأة منذ وقت طويل. كنت وأنت مستلق على بطنك تمد ساقيك، وعندما كنت تتململ، كانت قدماك تتشابكان ببعضهما، كانت مفاصل الركبـــة لا تكاد تتحرك. يا إلهي! صاح الأب فجـــأة ذات يوم أحد بعد الظهر، هنـــاك خللٌ ما، وبدأ في تحسس ســـاقيك. في يوم الإثنين، قمت بتسجيله لدى الطبيب، هناك شـــيء غير عادي لديه، فقدماه صلبتان للغاية، ظننت مرة أخـــرى، أن الكارثة تمت إزاحتها جانبا، وعضلات الســـاق كانت صلبة ومشدودة.

في ذلك الحين، كان هذا أمرا صغيرا ملفتا؛ أعدّت الأم الكتالوج الكامل لتفسيره، عكس الأب الذي كان يتكلم بصوت يملؤه الحزن على المصير. ربما هناك شيء فعلا ليس على ما يرام، قال الأب، يجـــب علينا فحصـــه طبيا. كان هناك خوف وفـــي نفس الوقت هناك أمل، فمن الممكن أن يتلاشـــى القلق في الهواء، وإنه بقدر كاف من عصائر البرتقال والأفومالتين، يمكن أن تجعلك إنســـانا سليما وسعيدا، كان الوالدان أسرى هذه التخوفات.

أما بالنسبة لي فقد ساعد نصحكما على نموي بشكل طبيعي، نتيجة الفحص الطبي لم تكن سيئة بالنسبة للأسرة، ووجب علينا مؤقتا أن نتقبلها، لأول مرة كنت أســمع عن الشــلل الدماغي، يا إلهي! إنه معروف، قالــت الأم للأب، هل تتذكر في الماضي، في فناء المدرســة، كان هناك الكثير من ذوي الأقدام المرتعشة، كان أحدهم إيطاليا وســيما، وهو محط إعجــاب الفتيات، بالتمرين علــى الأرجح يمكــن التخلص من هذا العيــب. علينا أن ننتظر، قالها الأب وهو مصدوم، علينا أن ننتظر، كنت ترقد فوق البطانية الصوف على الأرض، لا تدري شيئا، وقبضتك اليسرى الصغيرة تتشــبث بملعقة فضية، محدقا بحوَل خفيف في سطح الأرضية اللامــع وبحالة ابتهاج، مســتلقيا على بطنــك وبجهد كبير كنت تمنع رأسك من السقوط على الأرض مرتعشا من الإجهاد، وبرز ظهرك المقوس عندما تمددت ســاقاك في خط مستقيم، وبقيت قدمــاك معلقتين في الهواء. أنا لم يعد لديّ ثقة، قال الأب، كان الأمر يبــدو وكأن كلًا منا يتهم الآخر بالتقصير. كانت الأم تقلل من أهمية الموقف، كلما كان الأب يخشــى وقوع الأسوأ، وبخاصة في ذلك الحين كنا جميعا نحبك.

الملاحظــات الأولية التــي كانت تُظهر احتياجك للمســاعدة جعلتنا قادرين على المســاعدة وأقوياء، صار واقعا ما كنا جميعا طوال الوقت نخشاه، لكن على الأقل الآن أصبح كل شيء عاديا، واستطعنا معالجة المشكلة، ولم يعد الأمر يمثل تهديدا مستمرا، كما أن قــدر العائلة تحقــق على نحو وثيــق. كان الأمر بغيضا بالنسبة لي، وبخاصة أنه لم يعد في الإمكان إخفاؤه. كان مبدئي ألا يكون هناك شــيء لافت للنظر أمــام الآخرين، فقد يمكنهم

معايرتـــي ومضايقاتـــي؛ إن أخـــاه ليس طبيعيـــا، إن أخاه مقعدٌ عاجز. هل تســـمع يا أبي نباحا غليظا؟ إنها الثعالب، لقد صارت أكثـــر جرأة وتأقلمت مع حياتنا المتحضرة، ألا تســـتطيع التوقف عـــن الهزّ المخبول بوســـطك ذهابا وإيابا فـــوق كتفي؟ في الغابة سوف نحس بالأمان ولن نتعرض للسطو.

في الماضـــي كنت لا تعرف معنى الخوف، كنت تملك قبضات قويـــة، لكن بعد ذلك ومع تقدم العمر صرت تســـتخدم ســـكين الجيب، فشـــفرتها كان طولها كافيا، وعنـــد الضرورة يمكنك أن تصيب شـــخصا فـــي القلب، إما هو وإما أنـــا؛ كنت تقول دائما. ردود فعلـــك مازالت طيبـــة، فمن مارس الملاكمـــة ذات يوم فلن ينساها بســـرعة، في سنوات شـــبابك كنت تقوم بالتدريب على أكياس الرمل، وكنت توزع لكماتك القوية على كرة اللكم، وكان رد فعلك أثناء التمرين بسرعة البرق.

كان نـــط الحبل يجعلك تلهـــث إلى حد بعيـــد، بالذات قفزة الفاصل، كنت تقوم بتغيير الساقين، اليمنى واليسرى، بالتناوب. وصحت عندئذ، فليأت فقط فرد، فقط فليتجرأ شخص؛ الضربة الأولى ســـتكون موجهة إلى الذقن، بعدها سيسقطون كالأكياس المبلولة، وضربة ثانية في البطن، عندها لن تكون لأحد أي فرصة للرد. من يريد منازلتي، يجب أن يجيد الملاكمة، كنت تقول دائما. أبي لا تمســـكني بقوة، لا تخف، فلن تســـقط، أنا بالكاد أستطيع التنفس، ألا تستطيع أن تجلس بهدوء؟ ألا تفهم ذلك؟ هل مازلت يا أبي تتذكر جدالنا حول عقوبة الإعدام؟ بالنسبة لك كانت هذه العقوبة أمـــرا بدَهيا؛ مثل أولئك الأفـــراد، يجب القضاء عليهم نهائيا، فكل فرنك يتم صرفه عليهم خسارة.

كل مـــن يقوم بجريمة قتل بارد، يجب التخلص منه، ولا يمكن للمجتمـــع تحمله. لكن هناك دوافع تجعـــل المجرم مجرما، على سبيل المثال طفولة سيئة، لا يهمني، عندما يقتل شخصٌ شخصا بشـــكل تلقائي، عندما يقتل بدافع الغيرة أو الانتقام، فهذا شـيء آخر، عندما تكون العواطف هـي السبب، فأنا أوافق على عقوبات أقل غلظة، كنت تقول، يا إلهي، كم تشـــاجرنا، كم صـرخنا. لأيام طويلة كنـــت تقاطعني بعدها مثل هذه المناقشـــات. رويدا رويدا أحس بعض الشـــيء بثقل وزنك، منذ بدأت الصعود وأنا أشـــعر بعضلات الفخذين. لحســـن الحـــظ أني مـــدرب تدريبا جيدا، احترس! ســـأفرد ذراعيّ قليلا، واحد، اثنان، واحد، اثنان، وأقوم برفع كتفيّ، فعضلاتي مشدودة بعض الشيء، فقط لو بقيت في هدوء، فسيكون الأمر أكثر سهولة.

فـــي البيـــوت المحيطة بنـــا والمتناثـــرة، في المـــزارع والنجوع والقـــرى، نرى بعضهـــا وقد أضاء مصابيح الإنـــارة، وقام الناس بإخلاء طاولات شرفاتهم من الكؤوس وأطفؤوا الشموع الموجودة في الأوعية الزجاجية وقد لســـعهم البعوض. ســـتأتي العاصفة الرعدية دون شك، فالبعوض اليوم عدواني للغاية، مازال البعض يجلس أمام التليفزيون وقد قام بفتح النوافذ بسبب الجو الخانق. ومرة أخرى يمر يوم، إن البعوض اليوم شيء مزعج، الآن لسعتني واحـــدة في الرقبة ثانية، يا له من جو حار! يجب أن نقوم بتهوية الكوخ بشـــكل جيد يا أبي ســـيكون الجو ســـاخنا بالتأكيد هناك مثـــل فرن. لكن ربما تمطر بالفعل، وربما ســـمعنا قطرات المطر كقرع الطبل على ســـطح الكوخ، لكن السقف يمكنه التحمل، لقد تحققت من ذلك بنفسي، لقد أنجزنا عملا جيدا.

هــل تتذكــر عندما قمت بزيارتــك فــي دار الرعاية، وكانت ممرضة تقوم للتو بمسح مؤخرتك، كنت تقف مرتعشا أمام السرير ممسكا حافته بقوة، لم تكن قادرا على الوقوف، وساقاك تكادان تتهاران. الآن سننتهي حالا، قالت الممرضة في ودّ، لكن في المرة القادمة عليك أن تنادينا في وقت مبكر، عندئذ فقط يمكننا منع الكارثة. جرى البراز على الســاقين سائلا، إنه يصاب بالإسهال عندما يتناول وجبات معينة. لم أكن أعرف أن جلد الإنسان يمكن أن يصبــح بهذا البيــاض، يبدو أنه كان التناقــض للبراز الملطخ فقط. فقط لا تنظــر إلى هناك، فإن ذلك لن يرضيك، قلت في نفســي، إنه لشيء غير وقور بالنســبة إلى رجل عجوز، لو يتبرز مرة أخرى في السروال، بالذات عندما يتحتم على الابن أن يرى ذلــك. لكنني رأيت ذلك، مؤخرتك المترهلة، كانت عبارة عن لحم متجعد، لم تكن هنــاك أرداف بالمعنى المألوف، ولم يكن هذا أي عجوز يا أبي، إنما كنت أنت، أنت يا أبي.

إرهاصات الموت ما هي إلا ســكون شــرير، حتى وقت قريب كنت تقول إنك ترغب في إنجاز الأشــياء الأهم، جوته، فاوست، وبخاصة الجــزء الثاني، لم أفهمه أبدا بصــورة صحيحة. الآن لديك الوقت، المجلد الأخضر في طبعة بيرهاوزر للكلاسيكيات، من الأربعينيات، ســتجده فوق طاولة سريرك الصغير، بعد ذلك بفتــرة، وأنت في دار الرعايــة، كنت تريد أن أقــرأ عليك منه، ونســيت في الحال ما قرأته عليك، بعد ذلــك وبعد جمل قليلة دخلــت فــي النوم. هذا الجســد المضمحل والــذي نعتمد عليه اعتمادا كليا، صار مقيدا ومحدود الحركة. غالبا ما كنت أجلس بجانبك يا أبي، ونطل معا من النافذة، كان مجلد جوته الأخضر

فوق الطاولة بجانب منديل المائدة مباشرة وعلبة السكر، لم تنطق بكلمة، ومرت السحب في السماء بسرعات متباينة، فالسحب المنخفضة كانت سريعة بفعل عاصفة الريح، أما السحب في الطبقات الأعلى فكانت تمر بهدوء، كان يوما حارا مثل اليوم، وعاصفة رعدية على وشك الهبوب. انعكست السحب الداكنة على صفحة البحيرة فصار لونها رماديا مخضرا، وفوق الأمواج تكونت قمم صغيرة من الرغوة، وارتفعت السفن الشراعية عاليا فوق المياه، من حين لآخر كان يلمع صاري سفينة في نور الشمس الغاربة المقابل. والمتزلجون على الماء انطلقوا بسرعة فوق رذاذ المياه؛ وفي الغرفة كانت رائحة البراز والبول الكريهة في كل مكان، وأيضا رائحة مواد التنظيف والقرنبيط، بعدها جاءت قهوة بعد الظهر، وحصلت على قطعة من كعكة المشمش. إنه لا يستطيع أكلها للنهاية، قالت الممرضة، اقطع قطعة لنفسك، فإلقاء البقية خسارة. كنت مازلت حتى ذلك الحين تستطيع تناول الطعام بنفسك، وقمت أنا بقطع قطعة الكعك إلى لقمات صغيرة لك، كانت القطع الصغيرة في الحواف من السهل ثقبها بالشوكة وإيصالها للفم، أما القطع الأخرى، من دون الحواف، فكانت تسبب لك مجهودا، وعندما أردت أنا مساعدتك، قمت بإزاحة يدي بفظاظة جانبا. والقطع الأخرى لم يعد ممكنا ثقبها بالشوكة، وحاولت أن تغرفها في الجانب بسنّ الشوكة، لكنها كانت تنزلق في كل مرة بعيدا، حتى إنك اضطررت لاستخدام يدك الأخرى للمساعدة. كل قطعة كانت تنزلق من الشوكة، وفي النهاية صارت طاولة الطعام كلها ملطخة، أيضا فوق بنطال حلّتك الرياضية كانت هناك قطع مهروسة من المشمش، وأردت

التقاطها بأصابعك، كما حاولت تنظيف نفسك بالمنديل، ولكن بقايا ورق المنديل اختلطت بقطع المشمش المهروسة، والغلاف الأخضر لمجلد جوته كان يلمع في ضوء الشمس المنحدر، وفي زاوية سقوط هذا الضوء، صارت بقع السمن على البنطال واضحة بشكل بارز.

هكذا، يا أبي العزيز، الآن لا بد لي من التوقف، وأن أعمل على ضغط عمودي الفقري، يا له من جو حار، لو تأتي العاصفة الرعدية قريبا، إن حماما باردا الآن من شأنه أن يجلب الاسترخاء. يا ترى ماذا تفعل مارا الآن؟ أتراها تفتقدني؟ ربما يجب عليّ أن أقوم بالخطوة الأولى، عليّ ترك المجال لها بعض الشيء، وإلا أحست بأنها مُكرهة، وهل أرغب أنا بالحقيقة في المصالحة معها، لكن أنا لا أريد على أي حال أن أستمر في العلاقة بهذا الشكل.

أنا لا أريد أن أكون متوسلا بعد الآن، أم أبدأ في علاقة جديدة؟ من يريد بالضرورة رجلا عمره خمسون عاما؟ للمرة الأولى أحس بأنني لم أعد جذابا لعلاقة جديدة؟ وأسأل نفسي دائما نفس السؤال، أنت لا تستطيع الهرب من نفسك.

أبي، أنا لم أعد أعرف، ماذا ينبغي أن أفعل، هل عرفت أنت أيضا مثل هذه المشاعر؟ أنا لم أعتد مثل هذه الأمور، كنت دائما أجد حلا، وأقوم بعمل خطط وأفكار جديدة، لكن الآن لا أستطيع أكثر من عمل رسوم مضحكة، سرعان ما تتحول إلى رسوم كاريكاتيرية عبثية لنفسي وعن مستقبلي. هل العمر هو السبب؟ إن الآلة الداخلية في أعماقي والتي تعطي لحياتي معنى، توقفت فجأة عن الدوران، في الماضي كان اعتمادي عليها كبيرا.

كيـف يمكنني أن أبدأ حياتي مرة أخرى في حين إن الآخرين في مثل عمري يبدؤون في التراجع. استطاع الابن الأصغر، شديد الإعاقة، مرة أخرى شد نفسه عاليا إلى العمود، والذي كان الأب قد قـام بتركيبه له بحرَفية ماهرة منـذ زمن، وفي الأعلى وفي أقصى مكان يسـتطيع أن يصل إليه بعضلات ذراعيه المتشنجة، تمكـن من الإمسـاك بالعمود وضم يديه القويتـين حوله، ودفع نفسـه بكل قوة إلى الأعلى حتى تمكن في النهاية وبحركة دائرية خفيفة من أن يسـقط بجنبِه فوق السـرير، وبعد عدة محاولات غير مجدية اسـتطاع أن يفك مكابح الكرسـي المتحرك، والذي كان قد تحرك بعيدا عن السرير بفعل الأحداث السابقة، وتمكن من جعلهِ في الوضع الصحيح، بعدها قام بتثبيت مكابح الكرسي مجددا، هذه المرة يجب أن تنجح المحاولة، فهو لا يريد أن يسقط من فوق مقعد الكرسـي ثانية، قام بمسـح يديه المبللتين بالعرق بفعل الإجهاد والطقس الحار بغطاء السرير، بقوة والآن يجب ألا ينزلق حينما يقف منتصبا مرة ثانية وممسكا بالعمود. قبض بقوة على العمود الخشـبي وضم أصابعه حوله كما لو أنه يقوم بخنق عدوّ له، تشـبثت قبضته بالعمود وكأنه وسيلته الوحيدة للنجدة حتى لا يسـقط إلى الهاوية، وعدّل نفسـه في الوضع المناسب، وتـرك يديه بوصة بوصة تنزلق على العمود ليهبط إلى أسـفل، فوق مقعد الكرسـي المتاح، هـذه المرة يجب ألا يجلس في المكان الخطأ. قام بإسـناد الردف الأيسـر من مؤخرتهِ على الكرسي، واسـتطاع بمهارة أن يدفعه إلـى الناحية الأخرى بدون أن يترك العمـود، وتمكن أخيرا مـن أن يجلس بمؤخرته كاملة على مقعد الكرسي المصنوع من الجلد الصناعي، لقد نجحت محاولته!

يــا أمي! نــادى مرة أخرى: يــا أمي! ردي علــيّ! بعدها بدأ باســتخدام حركات يده المعتــادة، ومقابض اليــد المعتادة، التي يضغط بها إلى الأمام بشــكل متقطع فوق الحلقة المصنوعة من الكروم الصلب والمركّبة في عجلة الكرسي، يدفع إلى الأمام بقوة ودون ضغــط، يترك يديه لتتزلق، إلــى الأمام وإلى الخلف، رغم تدريبه الجيد على اســتخدام الكرســي المتحرك، لكن في حالة ارتباكه هذه، كان الأمر بالنسبة له ليس سهلا، أن يدفع نفسه ما بين الســرير وطاولة السرير الصغيرة والحائط إلى الخارج، إلى الممر الصغير المجاور بين دورة المياه وغرفة الحمام، والممر الكبير الــذي كانت الأم تقضي فيه الليــل، وذلك بعد إغلاق الغرف في الطابــق العلوي، كان يريد التوجه فورا إلى حيث ترقد الأم، لكنه كان يخشــى مما يمكن أن يــراه، كان يخاف من رؤية الأم، أحس في نفس الوقت أن مثانته على وشــك الانفجار، وأنه لم يعد في اســتطاعته حبس البول، واضطر للعضّ على أسنانه. دفع نفسه فــي اتجاه دورة المياه، ودفع البــاب دفعة قوية، كي يبقى مفتوحا على آخره ولفترة كافية حتى يستطيع أن يدلف بكرسيه المتحرك إلى الداخل.

اضطر مرة أخرى إلى شد فرامل كلتا العجلتين في الكرسي، وبمســاعدة عمود مثبت أفقيا في الحائط، تمكن من رفع نفس عاليا، إن هذا أمر بسيط، لقد اعتاد على تأدية هذا العمل دائما، بعدها شدّ بإحدى يديه بنطاله إلى الأسفل، وباليد الأخرى حاول حفظ توازنه، يجب عليه إنزال البنطال إلى الأرض، لأنه لا يريد تلويث البنطال بالبول، واضطر إلى الجلوس فوق المرحاض ببطء، وبعد إنزال ماء الســيفون، قام بالقبض على العمود وحاول رفع

نفســـه مرة أخرى عاليا، وباليد الأخرى حاول إمســـاك البنطال وشده إلى الأعلى. في مثل هذه الحالات كانت الأم دائما تساعده، فالأمر بالنســـبة له لم يكن سهلا، كان على وشك أن يفقد توازنه مـــرة أخرى عندما قام بلف نفســـه وهو ينحنـــي، لكنه تمكن من الإمســـاك بالبنطال، ونجح في رفعه حتى الركبة، غير أنه لاحظ أن رجل البنطال قد انزلقت من ساقه، فاضطر معها لتركه ينزل على الأرض، وحاول مرة أخرى أن يجد طريقا لســـاقه في رجل البنطال. مازال ممسكا بالعمود بقوة واضطر للانحناء كي يفتح رجل البنطال بشكل يســـمح لقدمه بالدخول فيها، لكنه في هذا الوضع لم يستطع أن يرفع قدمه من فوق الأرض بسبب إعاقته.

لـــم يتمكن من إيجاد مدخل رجل البنطال، تشـــابكت يداه مع قمـــاش البنطال، ووجب عليه ممســـكا بالعمود رفع نفســـه إلى الأعلى مرة أخرى، مقاوما شـــدا عضليا مفاجئا، وتوقف لحظة قصيرة ليلتقط أنفاسه، كان جسده مبللا بالعرق، والتصق الجزء العلوي مـــن ثيابه بصدره، بعد عدة دقائـــق حاول وهو في حالة الوقوف رفع قدمه، كي يضعها في رجل البنطال المفتوحة، بعدها أمسك مقبض الكرسي بيده اليمنى، محاولا الانحناء ببطء.

نجـــح أخيـــرا في القبض علـــى طرف بنطالـــه، ورفعه بعض الشـــيء عاليا، ثم أدار نفسه فجأة، وفي نفس الوقت ظل قابضا علـــى العمود، وكانـــت قبضته حديدية، لقـــد كادت الطاقة التي بذلها في تحريك جســـده تخلخل عظامه وتمزق أوتار يديه، مثل بهلـــوان جمع كل قواه؛ ومتنهدا كرافع أثقال تمكن من العودة إلى مكانـــه في الوضع الأصلي والصحيـــح، والذي كان فيه من قبل. لكن بنطاله عاد الآن للســـقوط مرة أخرى على الكاحل، والتصق

شـعره برأسه فبدا مثل قبعة مبللة، وسـمع دوّي دمه في أذنيه. نادى يائسـا: يا أمي! لا بد أن شيئا فظيعا قد حدث. وبدأ ثانية في ارتداء البنطال، لكـن قدمه كانت قد انزلقت مرة أخرى من رجلي البنطال، بدا عليه اليأس، لكنه في نفس الوقت أدار نفسه بعيدا وبقوة كي يسـتطيع الجلوس على مقعد الكرسي المتحرك، أما البنطال فقد تركه متدليا فوق أحد الكاحلين.

قام بغسـل يديه تلقائيا كمـا كان دائما يفعل، وكما تم تعليمه طـوال الوقت، فلدى المعاقين بالذات يلعـب عامل النظافة دورا مهما، قام بعدها بتجفيف يديه ومسح بالفوطة على وجهه المبلل بالعرق، بعد ذلك حاول إخراج نفسه، بحركات كان مدربا عليها، مرة ثانية من دورة المياه متجها إلى الممر، أدار كرسـيه المتحرك ناحية الممر الكبير، حريصا على ألا يسقط بنطاله كاملا، محاولا سـحبه على الأرض، ظل لحظة متـرددا، كان خائفا من المنظر، والذي سـوف يكتشـفه حالا، إنه لا يريد بعد أن يرى الحقيقة، صورة الأم العظيمة هذه، وجه الأم الشـاحب، بلا حياة. وتخيلها أمامه، وعيناها جامدتان، والفم المفتوح واللسان خارج الحنك.

كان يخشـى أن تروعـه نظراته إلى جسـد الأم الميت، مرت هـذه التخيلات بذهنه سـريعا. كيف يا ترى يبدو شـكلها، ربما كان نصف جسـدها مغطى، أو عارية تماما وسـاقاها ممددتان متباعدتـان عن بعضهما، وأعضاء جسـمها مجهـدة من جرّاء صراعها مع الموت، ربما كان الدم سـائلا مـن فمها، لكن يجب عليّ أن أساعدها.

ودفع نفسـه مصمما إلى الممر نصف المظلم، وكاد في ارتباكه أن يغفل رؤيتها، كانت ترقد كعادتها مغطاة في السـرير، قال في

نفســه ربما كان كل شــيء على ما يرام، وناداهــا مترددا بعض الشــيء: يا أمي! وســاد الصمت مرة أخرى، ولم يخرج منها أي صــوت. تحرك بكرســيه مقتربا للغاية من ســريرها، لكنه ومن موقعه في كرســيه لم يتمكن من لمسها، كان عليه أن يرى إن كان جسدها ما يزال دافئا أو إذا كانت ما تزال تتنفس، أراد أن يتأكد، فترك نفســه لينزلق ببطء من الكرســي المتحــرك إلى الأرض، وأثناء ذلك جُرحت ساقه بعد اصطدامه بمسند القدمين المعدني في الكرســي. اســتدار حتى أصبح يزحف على أربع، واتجه إلى ســرير الأم زاحفا، وحاول أن يقف أمام السرير، حاول أن يركع على ركبتيــه، ونجح أخيرا أن يضع أحد أصابعه على وريد رقبة الأم، لم تكن الأم ميتة، فقد أحس نبضا ضعيفا، من المحتمل أنها أصيبت بسكتة دماغية، شــفتاها كانتا نصف مفتوحتين، ولعاب جاف قــديم كان لاصقا على ذقنها. قال: يا أمي، لا تخافي أنت لست وحدك، أنا هنا موجود وسوف أجلب مساعدة.

أخــي العزيــز.. لم أكن أبدا ســعيدا في الخــروج معك إلى الأماكــن العامة، كنت أعتقد دائمــا أن الناس تحملق في البقعة الحمراء الكبيرة. بعد فترة اختفت هذه البقعة تحت الشعر، لقد صــرت فجأة طفــلا كبيرا في عربة الأطفــال الصغيرة، وبدأت علامات الدهشــة تظهر على وجوه الناس: هل جُن الوالدان؟ أم أن هناك شــيئا ليس على ما يرام مع هــذا الطفل؟ كان المطعم بالنســبة لي مكانا للعقاب البدني، كنت أود لو أستطيع إخفاءك تحــت البطانية، لو كان على الأقل فــي إمكاننا تعليق لافتة على عربة الأطفال الصغيرة، ونكتب عليها: إنه فقط قصور في النمو، وسوف يكتمل، من فضلكم ممنوع الشفقة.

الأطفال المصابون بمرض الشلل الدماغي هم في العادة أطفال جذابون، ولهذا السبب خاصة هم أيضا سعداء، فالأمر ليس له علاقة بكون الطفل طبيعيا أو غير طبيعي، الأمر ليس إلا اضطرابا حركيا. وثقت الأم ثقة كاملة في إيمانها، في مثل هذه الحالات يحتاج الإنسان إلى الدِّين، فهو ينقصكم، هذا هو كل ما في الأمر، أنتم في حاجة إلى ديانة قوية مؤثرة، قالت الأم.

لن يستطيع المشي بطريقة طبيعية أبدا، ابني لن يستطيع المشي بطريقة طبيعية أبدا، لحسن الحظ أنك لم تكن متخلفا عقليا، والأب لم يصدق أنك غير طبيعي، وأنا في المدرسة أصبحت في تراجع دراسي، هل أنت في الحقيقة غبيّ أم أنك تتصنع الغباء كي تغيظني؟ وجّه الأب كلامه لي.

يا له من هراء، إن الإعاقة الجسدية شيء مختلف تماما! يا له من شيء فظيع، كيف تتكلمون؟ قالت الأم. بهذه الطريقة لا يمكن لطفل أن يصبح سعيدا، إنه ليس معاقا بالمرة، إنه يعاني من اضطراب حركي خفيف.

هكذا يا أبي، لقد استعدت إيقاعي مرة أخرى، ليس سريعا جدا، وليس بطيئا جدا، هأنذا أغذّ الخطى بقدر متساو، لقد اعتدت على وزنك، عندما تتصرف بهدوء، فلا تهتز ولا تتململ، يصبح بمقدوري أن أسير بك لساعات طويلة، قريبا سوف نصل إلى الكوخ، هل تظن أن كلا منا سوف يتحمل الآخر؟ الأب والابن؛ على مساحة ضيقة كهذه؟ أنت على أريكة، بجانب الحائط، وأنا على أخرى، في الجانب المقابل؟ ربما لا أستطيع النوم في الليل، سوف أسمع أنفاسك، وأسترق السمع بدقة، ربما سأكون خائفا أن تتوقف فجأة عن التنفس، أن تعاجلك حشرجة الموت، وأن

تتوقف أنفاسك نهائيا عن الصفير، وتأتي النهاية على نحو مفاجئ، وعندها ينتهي كل شيء.

سوف ينسجم كل منا مع الآخر، ربما تبدأ في الكلام مرة أخرى، لعل عقدة لسانك تنفكّ في هذا المكان المختلف، فقط أنت وأنا، هناك سيكون من الممكن تحقيق الكثير، سترى ذلك. هل مازلت تتذكر كيف أننا، بعدما انتهينا من بناء الكوخ، قمنا سويا بالاحتفال، مساء يوم جمعة، كنت قد قمت بإحضارك فورا بعد انتهاء العمل؟ قبلها كنت قد ابتعت بعض الطعام، وقمت أنت بتدبير النبيذ، وكنت مندهشا لانتقائك أنواعا جيدة. كالعادة كنت ترضى بزيورخر لاندفاين، وتشيد بطعمه اللذيذ، لقد بذّرت كثيرا من أجل الاحتفال بتلك المناسبة. عندما صعدنا من موقف السيارات إلى الكوخ، بدأنا أنا وأنت في التعرق. أيضا في ذلك الوقت، كان مساء صيفيا دافئا، لكن في وقت مبكر من العام، نهاية يونيو، بداية يوليو. في البداية سرنا صامتين خلف بعضنا، ثم صحت أنت فجأة: لا تمشِ سريعا، أنا لم أعد شابا. أما أنا فلم أخفض من سرعتي، كنت أريد أن أرى هل مازال في استطاعتك تحمل المشي، فلقد كنت دائما معتادا عليه. كلما اقتربنا حقيقة من هدفنا قرُبت المسافة بيننا.

وعندما أصبح الكوخ في مرمى النظر، سمعتك تلهث خلفي بانتظام، وبدأت تسرع خطواتك، حتى إنك استطعت أن تتجاوزني قبيل الوصول للنهاية. كان العرق يبلل جبينك، وشعراتك الرقيقة ملتصقة برأسك، كان شكلك يبدو وكأنك مكثت طويلا في حمام ساخن. في الكوخ كان الجو خانقا، حتى إنه كان من الصعب التنفس، ورائحة الخشب الطازج والصنوبر كانت تملأ المكان في

الخارج، حيث الشرفة الصغيرة المصنوعة من الخشب الخام، قمت أنا بإخراج طعام العشاء، كان الجو مختلفا هنا في الأعلى بالمقارنة بالمعتاد. حتى الآن كنا نأتي دائما للعمل في البيت، هذه المرة نحن هنا فقط من أجل أنفسنا، كيف يمكن أن يمر المساء هنا؟ كنت آمل لو اقترب كل منا إلى الآخر، لو تحدثنا سويا، ربما كان في إمكاننا إيضاح بعض الأمور، كان يهمني كثيرا أن تكون علاقتنا طيبة.

كنت أريد قضاء مساء لطيف معك، مساء طبيعي تماما وبسيط، ليس عاطفيا لكنه خال من الشجار. حسبما أتذكر، قمت أنا بنزع غلاف علبة اللحم المجفف، ووضعت شرائح اللحم المنفردة على طبقين. كلما استخدمنا أطباقا أقل كان غسيلنا لها أقل، في هذا الأمر، كان رأينا واحدا، في البداية تبادلنا الحديث في بعض التفاهات، لم تكن لدينا مشكلة في هذا، كنا نحب أن نتكلم بتلميحات ساخرة، كلانا كان لديه ميل لسخرية سريالية معينة. إذن، في نخبك..! قلتها ونظرت إليّ، كنت أخشى الخروج من هذا المزاج الجميل، ولكنك فجأة جعلتنا نستمتع باللحظة. في نخب بيتنا! لقد نجحنا فعلا بفضل معاونتك، لم أكن أتخيل أن في إمكانك إنجاز ذلك العمل، كل الاحترام لإرادتك وصمودك.

بدأت الشمس تغرب ببطء، والطيور تغرد وتبتهج قبل أن تخلد للراحة في أعشاشها وعلى ذرى الأشجار. سريعا صار نصف الزجاجة فارغا، لقد كان الطقس الحار يزيدنا عطشا، واللحم المملح جفف حلوقنا، وكلما مر الوقت تحدثنا دائما أكثر، وفجأة أحسست بالارتياح.

استطعت أن أترك نفسي واستسلمت كليا لهذا المزاج. خلاف ذلك كنت دائما مهتما بمراقبة العلاقة بيننا، وعندما قمت بفتح

الزجاجة الثانية وتذوقها، كنا بالفعل قد بدأنا في الثمالة، شربنا كؤوسنا وابتسم كل منا للآخر. هل مازلت تتذكر؟ كان حديثا طيبا، ضحكنا كثيـــرا، وفي هذه الأثناء كان قد حل الظلام. كنا نجلس في ضوء شـــموع الأوعية الزجاجية، وكنا نســـمع من حين لآخر صياح بومة صغيرة، وخشخشة الفئران تحت أرضية الشرفة.

أحسســـنا ســـويا بالحاجة إلى التبول في نفس الوقت، وعند وقوفي لاحظت أني ثمل بعض الشـــيء. عفوا! قلت أنت ضاحكا، هل تشعر بذلك أيضا؟ انتهينا من ذلك بينما كنا نترنح قليلا، لم أكن متأكدا إذا كنت قد تبولت على حذائي أو حتى على سروالي، ولكني في الحقيقة كنت غير مكترث.

وعدنـــا للجلوس إلى الطاولة، وكانت الحواجز بيننا قد زالت، وضحكنـــا، وانتابتنا حالة من المرح، أعتقـــد أنه في النهاية قمنا بالغناء ســـويا. هـــل مازلت تتذكر؟ بعدها ســـقطنا فوق الأريكة، وتبادلنا نكتتين أو ثلاثـــا، وقهقهنا، بعد ذلك أصبح الجو هادئا، ونمنا حتى وقت متأخر من الصباح. هل تســـمع في الحقيقة ما أقـــول أم يجب أن أتكلـــم بصوت أعلى بســـبب ضجيج ماكينات الحصاد؟

هل تتذكر الكلب الأول؟ هذا البوكسر، لقد قمت بإبعاده، رغم قيامـــك بضربه، كان من الصعب تربيتـــه، ورفض إطاعتك، لقد خذلـــك، وفشـــلت كل المحاولات معه، لقد كـــدت تقتله. صحت: مـــع الكلب القادم لن يحدث معي نفس الشـــيء، أنا أريده جروا مـــن مكان جيـــد لتربية الـــكلاب، وقمت بقـــراءة كتب ومجلات متخصصـــة، وجمعت المعلومات من الزملاء في النادي الرياضي لتربيـــة الكلاب، وبعدها، أنا مازلت أتذكر جيدا، رغم مرور أكثر

مـن أربعين عاما، كان الجو خانقا، وطيور السـنونو كانت تحلق منخفضة، قالت الأم: سوف تهب عاصفة رعدية بالتأكيد، وعبر البحيرة تجمعت الغيوم. كان الجو قائظا مثل اليوم، وصحت أنا: خنافس شهر مايو. كلا، قلت أنت، إنها خنافس شهر يونيو، لكنها تشـبه خنافس مايـو، وأوضحت لي أنها صغيرة بعض الشـيء، وغالبا ما تظهر في شـهر يوليو. انظر هناك، سـرب بأكمله من الخنافس، هناك بجانب أشـجار الخمان، هناك، الآن سـقطت واحدة في طبق الحسـاء، صحت أنت غاضبا، يا لها من قذارة! وقمت بصيدها بالملعقة، لا، لا تلمسـها، سوف تستعيد عافيتها مرة أخرى.

وبالفعـل برزت مجسـات استشـعار الخنفسـاء خارجة من الحساء اللزج، وانفتح ظهرها المدرع، وخرجت منه أجنحتها مثل منديـل مبلل من الحرير، وقامت بفـرد الأجنحة، وأطلقت لعدة مـرات طنينا كطائرة ذات مراوح قبل الإقـلاع، والتصقت بقايا الحسـاء اللزج بساقها الصغيرة المليء بالشـعر، وفجأة وبتثاقل ارتفـع أزيزها وطـارت في الهـواء، طارت عدة أمتـار بارتفاع منخفض فوق الأرض ثم سقطت على العشب.

من المحتمل أنك نسيت ذلك المساء، فقد كان بالنسبة لك غير ذي أهمية.

في تمام الثامنة سوف نغادر، قلت أنت، وسنصل في التاسعة عنـد مُربي الكلاب، كي نحضر الكلب. في اتجاه رابيرزفيل كان المطـر يهطل بالفعل والسـماء مظلمة. وهنا لوّحـت الأم فجأة بذراعيهـا فـي الهواء، وصرخت: خنفسـاء في شـعري، وقعت الحشـرة على ظهرها فوق الطاولة، منفعلة ضربت الأم بالمنديل

فوقها، صحت أنت: اتركي هذا، إنه كائن حي. صرخت الأم: أنت عاطفي، وهوت مرة أخرى بالمنديل المطوي فوق الحشرة، اندفعت مادة سائلة صفراء من جسم الخنفساء الأسود، وتحركت أرجلها الصغيرة حائرة. اقتلي الحشـــرة تماما على الأقل، لا أحد يجعل مخلوقا يعاني، قلت أنت، وقمت بســحق الحشــرة بقبضة يدك المشـــدودة، فسقط كوب زجاجي، وتحولت الحشرة الصغيرة إلى هريس. يا له من شـــيء يثير الاشـــمئزاز، صاحـــت الأم، وألقت بالمنديل فوق الحشــرة. لماذا كان يجب أن تكون دائما عنيفا؟ أما أنا فقمت برفع طرف المنديــل إلى أعلى بحذر، ونظرت مفتونا، وفي ذات الوقت باشمئزاز إلى الحشرة المدهوسة. رجل الخنفساء الصغيــرة كانت مازالت ترتعــش، إن هذا فقط مجرد رد فعل لا إرادي، لقد ماتت الحشرة، ها أنت ترى أن الرأس مهروس، هكذا فسرت الأمر لي. أثناء ذلك صاحت الأم: لا تعملوا ضجة بسبب خنفســاء. إنه كائن حي مثلنا، لكنكِ لا تريدين أبدا إدراك ذلك، أجبت أنت موبخا.

وفجـــأة تخيلت ماذا يخرج مني؟ مخـــاط أصفر اللون أم دم؟ أم شـــيء آخر؟.. وعلى نحو مفاجئ شـــعرت بالغثيان، أحسست بالاختنـــاق في حلقي، وتقيـــأت على المائدة، علـــى طبقي، على الخنفســـاء، وعلى صدرية الأم، ربما تتذكر ذلك الآن. ما هذا؟! صرخـــت أنت: يا له من عمل مقـــزز!.. هل رأيت ما فعلت؟! لقد أنهيت طعامك ســـريعا، لم تمضغه جيدا، رميته رميا في جوفك. أمـــا أنا فقد كان هنالك طعم مرٌّ في فمي، نظرت إلى ما تقيأته، ما زال من الممكن التعرف على كل شيء؛ البطاطس المقلية، قطع اللحم، بقايا الطماطم، كل شـــيء مخلوط ببعضه ولزج. قلت لي:

إذا كنت مازلت تشعر بالغثيان فلا ينبغي أن تركب معنا، لكن أنا أريد أن أحضر الكلب الصغير. تنهدت أنا وتقيأت في الحال مرة أخرى، لكن هذه المرة كمثل أحشاء الخنفساء! صرخت بأعلى صوتي، وقلت: أريد أن أذهب معكم. من يعرف؛ ربما يعاني الصغير من الحمى، وضعت يدك فوق جبهتي، كما كنت تفعل دائما أو عندما كنت تشك أن شيئا فيّ ليس على ما يرام.

إن حرارته مرتفعة! لكني أريد أن أذهب معكم! سوف نرى، قالت الأم مواسية، ليس لديه حمى، إنها فقط سخونة الجو، لقد كان كل هذا كثيرا بالنسبة له، لماذا تستثيره دائما بهذه الطريقة؟ لن يدخل السيارة معي، فقد يتقيأ مرة أخرى، على مقاعد السيارة. لكنك لا تجلب كلبا جديدا كل يوم، وفي النهاية فهي تجربة جديدة بالنسبة لطفل. بعد ذلك بنصف ساعة، ركبت معك وغادرنا، وهمست لي: تماسك ولا تتقيأ في السيارة. في الخارج، كان الظلام قد حل، وبدأت قطرات المطر الأولى تضرب زجاج السيارة الأمامي، وبعدها ظهرت ومضات برق، تلاها صوت رعد قوي قصير جاف.

قلت: لا تخف، نحن محميون داخل السيارة، وهناك تحويل للبرق. وتخيلت أنا، أن البرق ضرب السيارة، تخيلت كيف أن الأبواب، وكيف أن السقف، وكيف أن معدن السيارة كله توهج باللون الأحمر والأبيض. قمت بضم وسادة إلى جسدي، وظل البرق طوال الوقت يضيء داخل السيارة. بعدها مباشرة ضرب البرق ضربة قوية، وصحت أنت متحمسا : نحن الآن في وسط العاصفة، مباشرة بعد البرق بدأنا نسمع الرعد. قلت لي: لا تخف، لقد أخبرتك أننا محميون داخل السيارة. كيف انهمر

المطر كأنه دلاء من الماء؟! لم نستطع أن نرى شيئا تقريبا من السيارة، وكأننا كنا نسير تحت الماء!! بابا، أريد أن أتبول، تماسك، ولكن الوقت كان قد فات، لكن لا، بالذات فوق الوسادة، إنها هدية أمك في عيد ميلادي، وأعتقد أنه لا يمكن غسلها، كم كان ذلك صعبا، شيء يثير الاشمئزاز، كيف كانت رائحتها النتنة. أجل، لقد قلت إنه كان ينبغي عليك البقاء في البيت، ولكنكما تعرفان دائما أكثر مني.

الآن يا أبي العزيز، عليك أن تمسك نفسك جيدا، الآن يأتي الصعود الأول السهل، لا تحمل هما، أنا أرى بما فيه الكفاية، سوف أكون منتبها بسبب ماكينات الحصاد، إنها جميعا موجودة في الجزء الأسفل من الحقول، هل مازلت تتذكر؟ عند مُربي الكلاب، كانت الأرض ليّنة، صرخت: انتبه، إنك تلوث نفسك، كانت الكلاب تنبح، تعوي وتزمجر خلف سياج من السلك، قال مُربي الكلاب بفخر، لا أحد يمكنه دخول هذا المكان حيا، فما بالك بالخروج منه مرة أخرى، نحن نريد كلبا كهذا بالضبط، قلت أنت، كلبا للحراسة وليس كلبا للتدليل. أضاء مُربي الكلاب بكشاف النور داخل القفص: لقد وجدت ما تطلبه! ورأيت أنا من خلال شعاع الضوء، كيف أن كلبا يكشف عن أسنانه وآخر يعض في سلك القفص: هذه هي الأم، في القفص المجاور قفز كلب ضخم عاليا وألقى بنفسه على السياج: هذا هو الأب، لا أحد يمكنه الدخول إلى هذا المكان غيري، صدقني! انتظر لحظة. ذهب إلى القفص وعاد بجرو صغير، لونه خليط من الأسود والبني وذو حوافر كبيرة.

هذا هو الكلب المناسب لكم، وهذا هو التوقيت الملائم لفطامه: اسمه هارو فون فيلد باختوبل، كلب من سلالة ممتازة

ولن يخذلكم. وفي رحلة العودة إلى المنزل، سمحت لي بأن يجلس الجرو هارو على ركبتيّ، أنا مازلت أرى أمامي حتى الآن أنيابه البيضاء الكبيرة مكتملة النمو، وعينيه الواسعتين وهو يحدق كالمجنون. لكن فراء هارو كان ناعما للغاية، ولسانه الذي كان يلعق به أصابعي كان دافئا، وبطنه الصغيرة كانت مازالت عارية تماما، هكذا تكون الحيوانات الصغيرة، قلت أنت، دعه يجلس فوق المفرش البلاستيك، حتى لا يتبول على المقعد. تأكد من ذلك! أنا أعتمد عليك! لكن الوقت كان قد فات، لأنه تمدد قليلا واندفع البول قويا، لقد قام هارو بالتبول في اتجاه ظهر المقعد الأمامي.

يائسا حاولت بالمنديل الورقي مسح ظهر المقعد. إن اسم هارو جميل، هل من الممكن أن يبيت هارو هذه الليلة في داخل المنزل؟ كلا، الكلب مكانه بيت الكلب، ويجب ألا يُدلل، لكن على الأقل الليلة الأولى؟

أبي، يجب عليّ أن ألتقط أنفاسي، إن الصعود كان أكثر إرهاقا مما تصورت. هل يعجبك الجو هنا في أعلى التل؟ كان المشي دائما بالنسبة لك متعة كبيرة، إنك بالتأكيد تفتقده كثيرا في الأوقات الأخيرة. في الماضي كنت تمشي كثيرا وبانتظام، وصرت مع تقدم العمر تمشي بانحناءة خفيفة وتجرّ قدميك، لكنك رغم ذلك كنت تمشي بانتظام، وبشكل لا يعرف الكلل كنت تسرع الخطى، كلا، كلا، كنت تود إنجاز المسافة كلها دائما في نفس الوقت، بل في الآونة الأخيرة كان بإمكانك تسجيل رقم قياسي، قلت أنا لأصدقائي الذين شاهدوك وأنت تسير في الشارع، لقد بدا كبر السن عليك قليلا في الأوقات الأخيرة، أنا لم أرغب أبدا

في أن يصير أبي رجلا عجوزا، ضعيفا. كنت أريد أبا، أيضا في الكِبر، قويا، رائعا، متميزا، حاضر الذهن، مدهشا. الكلب مكانه بيت الكلب، كنت تصرّ على ذلك وترفض التدليل. إن الكلب يجب أن يعتاد على ذلك من أول يوم، إنه في النهاية حيوان، ويجب عدم أنسنة الحيوانات. لكن هارو كان يحب اللعب، كان يستلقي على ظهره، ويريد مداعبته في رقبته وصدره وبطنه العارية. لكنك بعد ذلك وضعته في بيت كبير خاص به، مطليّ باللون الأصفر وذي سقف أسود، ومليء بالقش الخشن والشائك. كان هارو لأول مرة ينفصل عن أمه، وظلّ يعوي طوال الليل، لكن اللعين لم يجد إليك طريقا. وعندما تسللت إلى غرفة نومكما وطرقت عليّ الباب، صحت قائلا: دعني أنم، إنه سوف يعتاد على ذلك. الكلب يجب من البداية أن تتم تربيته جيدا، والشيء الأهم في تربيته هو عدم تغيير الرأي، إما أن تصبح سيده ومعلمه وإما أن يفعل بك ما يشاء.

كانت المارة تصيح: أوه.. يا له من كلب لطيف! وكنت ترد بانفعال: من فضلكم لا تداعبوا الكلب. كنت تقول إن العلاقة به ينبغي ألا تكون حميمة، لكنك استثنيت الأطفال. وبعدها بدأت مرحلة الترويض، فصرت عضوا في نادي الكلاب المحلي، مباشرة من البداية كان التخصص رفيقك، وكنت تقول أنا لا أريد تكرار نفس المشكلات مع أنثى الكلب البوكسر، تلك الغبيّة. صباحا كل يوم أحد، وفي جميع ظروف الطقس، كنا نخرج مع الكلب، ليس هناك طقس غير ملائم، كنت تقول دائما، هناك فقط ملابس غير ملائمة. وكانت البداية، عاليا إلى بروج ألمند، وكان واضحا؛ هارو كان كلبا مطيعا منصاعا.

قال المدرب: عندما يكتمل نموه، سـيصبح حارسـا جيدا، فهو بطبيعته لديه رغبة كبيرة في الهجوم!

ورأيـت أنا كيف كان الكلب يقفز فـوق عوائق دائما ما ترتفع أثناء هطول المطر الشديد، وكيف كان يتغلب على حوائط التسلق، وكيف كان ينسـلّ من تحت العوارض! وكنت أنت تريد معطفا من الجلـد وقبعة للحمايـة من المطر. في البدايـة أخذت تلعب مع الكلـب الصغير، وكنت تقول، إنه مـازال جروا، وكان يتلقى منك مـن حين لآخر ضربة بجريدة مطوية. يجب ألا يرى الحيوان من الذي يضربه، حتى لا يخشـى الأيدي ويصيـر جبانا، فالعقوبة يجب أن تكون على نحو مفاجئ، لقد قمت بجمع معلومات دقيقة عن هذا الموضوع.

ذات يـوم، كان عليّ وحـدي أن أخرج مع الكلب للتنزه، نصف ساعة على الأقل. إن كلبا من نوع دوبرمان يحتاج إلى مكان للركض، وإلا فإنه يتعذب. نصف ساعة كاملة بالنسبة لي في ذلك الوقت، كانت وقتا طويلا للغاية، كنت أقوم بالمشـي، وأجلس فوق أريكة، وأقرأ مجلة ميكي ماوس صغيـرة، خبأتها داخل قميصي. صار الكلـب يكبر كل يوم، وغدا أكثر عدوانية، وكان يعض السلسـلة، ويهز رأسه يمينا ويسارا، عندما كنت أريد سحبها من فمه، وكأنه يدافع عن غنيمة. ولم يعد ينصاع لأوامري عندما أصرخ وأنا في حالة من اليأس: اجلـس! كان يقفز عليّ مزمجرا عندما أعطيه أمرا بالجلوس أو حين كنت أحاول إمسـاكه من سلسـلة الرقبة. وددت لـو كان لدي قدرة للسـيطرة عليه، لكن زمجرته أصبحت أعلـى صوتا وأكثر تهديدا، بالذات عندما كنت أطلب منه شـيئا أو عندمـا كنت أريد فرض رأيي، عدة مرات هاجمته كلاب أكبر

حجمـــا منه وقاموا بإصابته، فقط من خلال ذلك يمكنه أن يتعلم الدفاع عن نفسه، هذا أمر طبيعي، كنت تقول.

أمـــا أنـــا فكنت أعتقـــد أن دم الكلاب يختلـــف تماما عن دم الإنسان، فلونه داكن ويشبه لون القهوة، لكنها تحس نفس الآلام. هل تحس الكلاب بالألم؟ بالتأكيد، قلت أنت، ولكنها ليست بشرا بل حيوانات. لقد تعلم هارو الدفاع عن نفســـه، بعد أن كان يرقد مستسلما على ظهره، بل صار يعض في خواصر ورقاب الكلاب الذكور الأضخم حجما، وســـرعان مـــا أصبح معروفا على نطاق واســـع بأنه الكلب الذي يهابه الجميع. لقد كان يهزم كل الكلاب التـــي كانت تقاومه، إما أن يجبرها على الهرب وإما أن يطرحها أرضا، ويلقي بنفســـه فوقها مزمجرا أو مكشـــرا عن أنيابه. كل أصحـــاب الكلاب الأخرى كانوا يتجنبونـــه، فقط من حين لآخر كانت تحـــدث واقعة مع كلب من فصيلـــة الراعي الألماني أو من فصيلة الكلاب الشرسة روت فيلر، كان أبي يصيح عندئذ، فقط لا تتدخل، فـــإن لديها قوانينها الخاصـــة، فليس حتما أن يصل الأمر لمعركة بينها. إن هارو كلب يحب الســـيطرة، وعندما يحترم خصمه ذلك فلن يوجد أي عراك.

وقفـــت أنا خلف ظهرك في حالة ترقب وخوف بنبضات قلب تدق مسموعة وصفير في الأذن. صحت أنت، لم يتقرر أي شيء بعد، بينما ظل الكلبان يحومان حول بعضهما بســـيقان مستقيمة وبذيول مرفوعة، حينهـــا قلت لصاحب الكلب: هل ترى أن كلبك قد خضع واستســـلم، لا تقلق فلن يحدث شـــيء. لكن وفي هذه اللحظة، اشتبك الكلبان بأسنانهما، صرخ الأب، فقط لا تتدخل، وعلا صوت الزمجرة والعواء، وعلى نحو مفاجئ أصبحت المعركة

بينهما دموية. قام هارو بعض رقبة كلب الراعي الألماني الضخم، الذي سقط على الأرض، وتدخلت أنت وظللت تضرب هارو بمقود الكلب المصنوع من الجلد على فرائه ذي الشعر القصير، ضربات قوية، كان صوتها عاليا وكأنها طلقات مسدس. كل هذا لم يغير من الموقف شيئا، صرخ صاحب الكلب، إنه سيقتل كلبي، إنه وحش!

وبدأت أنت وصاحب الكلب في ضرب هارو بأقدامكما في خاصرته، لكن هارو لم يترك الكلب الآخر إلا حين أمسكت أنت بساقيه الخلفيتين وقمت بثنيهما ضد بعضهما البعض، حتى اضطر من الألم إلى فتح فكيه وترك الكلب المتأوه. صحت أنت مرة أخرى: سار الأمر على ما يرام. وأنت تجرّ هارو الملطخ بالدم قلت لصاحب الكلب حينها، كما أرى فإن إصابة كلبك ليست مهددة لحياته. كانت فاتورة الطبيب البيطري عالية، ولكن لحسن الحظ كان لدينا تأمين صحي على الكلب، وعندما بدأ هارو في قتل القطط، اضطررنا بعد أن قتل قطتنا، لجلب قطة ثانية. كنت من ناحية غاضبا ومن ناحية أخرى فخورا بذلك، وتقول إنه كلب حقيقي. بعدها بدأ هارو أيضا في الهجوم على الناس، وكنت تقول إن الناس الذين هجم عليهم، هم المخطئون! فمن يُظهر الخوف فإنه يريد أن يقول للكلب: أنت يمكنك أن تفعل معي ما تشاء، فلن أدافع عن نفسي. عليك المشي بشكل عادي وطبيعي، وبخطوات ثابتة، ليست سريعة، وليست بطيئة، كما لو أن الكلب ليس موجودا، عندها لا يهاجم الكلب أحدا. كنت تقول أخيرا إن الإنسان متفوق على الحيوان، والحيوان يعرف هذا بغريزته. لقد كان هارو كلب حراسة ممتازا، وكان يحصل على

مراكز متقدمة دائما في المسابقات، يكسب كل جائزة وكل كأس، ولم ينجح أحد في انتزاع أي شـيء من فم هارو، يكفي أن تأمره بالجلوس: اجلس. كان في استطاعة هارو أن يمزق أي لص إربا إربا، يكفي الصياح: بكلمة أمسك، كنت تقول أنا لا أنصح أي شخص بالاقتراب من منزلنا ليلا، إن أسرتي محمية، وكنت تتباهى بذلك. عندما يخرج ابني مع هارو للتنزه، فليس هناك ما يدعو للقلق، فكل مجرم أو خاطف يستطيع هارو تمزيقه في الحال، وأنا بالفعل لم أعد أخاف من المجرمين أو الخاطفين، إنما كنت أخاف من هارو، ومن زمجرته، ومن مواجهاته مع الكلاب الأخرى، ومن مواجهاته مع الناس الآخرين.

هل تشعر بالراحة يا أبي؟ هل تؤلمك حواف حقيبة الظهر في فخذيك؟ في ذات الوقت كان يحاول الابن المعاق أن يرفع نفسه عاليا إلى حافة السرير، قبض على غطاء السرير الناعم، وشدّه من فوق جسد الأم فكشف عن ساقيها البيضاوين وركبتيها، وترك الغطاء ليسقط من يده وهو في حالة من الفزع، وقام بمسك سنادات جوانب الكرسي المتحرك، ليجذب نفسه عاليا، وضغط ساقيه في اتجاه السرير، وحاول بذراع واحدة مثل لاعب جمباز المتوازي أن يرفع نفسه عاليا ومسنودا على الكرسي المتحرك، والذي انزلق إلى الجانب رغم فرامله المشدودة، وأحدثت عجلاته الفارغة تقريبا من الهواء صريرا وطقطقة، وسقط الابن بطوله فوق السرير على جسد الأم.

أحس بأنفاسها الدافئة، وبجسدها، وسمع صوت خشخشة في حلقها مثل الشخير وكأنها حشرجة الموت. رأسه فوق رأسها، خده فوق خد الأم، مثل طفل صغير واللعاب يسيل من

فمه. قال في نفســه، فلتبق راقــدا للحظة ولا تتحرك، ولتغص في الظــلام فوق جســد الأم ولتغرق في ســواد الأبدية، لكنه نهض ثانية وتحرك ببطء شــديد في اتجاه حافة السرير، حتى تمكــن من الانزلاق على الأرض مرة أخــرى. كان البلاط باردا على جســده الســاخن، عندما تمدد فوق الأرض وظهر العرق فــوق جبينه وتقطّر في عينيه، بينما كان يلهث. حاول بكل قوته رفع جسده عاليا، وأســند يدا على الكرسي المتحرك والأخرى على حافة الســرير، دون أن يفقد توازنه، وبحذر وببطء ضغط بذراعيه واســتطاع الوقوف على أصابــع قدميه، هذا جزء من المرض، هكــذا قال طبيب العظام منذ أعوام، وأخيرا تمكن من الجلوس على الكرسي.

عليــه أن ينــادي طبيبا، يجــب إحضار طبيــب للأم. تحرك بكرسيه إلى النافذة، انحنى ببطء، ومدّ ذراعه وقام بتحريك يده فوق مقبض النافذة، وتمكن من الإمساك به. فتح النافذة وخرج صوته في الليل مناديا بخجل: مرحبا! ومرة أخرى بصوت أعلى: النجدة. وفي النهاية صرخ بأعلى صوت: النجدة! لم يسمعه أحد ولم يرد أحد. من بعيد ســمع ضجيج ماكينة حصاد، يجب عليه الخروج إلى الشــارع، يجب عليه المرور خلال ممشــى الحديقة، وأن يتغلب على ذلك دون مســاعدة خارجيــة. إنه لم يفعل ذلك أبدا في حياته حتــى الآن، عليه أن يخرج من الباب عبر الدرج. إحدى يديه ممســكة بالسور المعدني والأخرى متكئة على عصا. عليه النجاح في ذلك، والنزول إلى مقدمة الكراج، وهناك يحاول أن يجعــل الآخرين يرونه؛ أن يلوّح بذراعيه، أن يصرخ، ربما يراه أحد ويجلب النجدة ويحضر طبيبا، أو الإسعاف.

ومرة أخرى حاول رفــع بنطاله وإدخال قدمه في فتحة رجل البنطال، نجح في ذلك واستطاع الإمساك به، ورفعه حتى الركبة، والجلوس وإدخال مؤخرته فيه ورفعه حتى بطنه، ثم قام بتحريك كرســيه في اتجاه باب المنزل، أمســك بعصاه ووضعها بالعرض فوق ســنّادات جوانب الكرســي المتحــرك، كان عليه أن يتحرك بحرص، حتى لا تســقط عصاه فوق الأرض. قال: يجب عليّ أن أذهب الآن يا أمي، ســوف أجلب النجدة، وكل شيء سيكون على مــا يرام، لا تخافي. وألقى نظرة خجولة على جســد الأم نصف المكشــوف، وسقط ضوء مصباح طاولة الســرير على وجه الأم، وأضاء فمها المفتوح.

فأشــاح بوجهه بعيدا حتى لا يرى ذلــك، أُصيب بدوار وكان على وشــك الانهيار. انحنى بصدره إلى الأمام محاولا أن يدس المفتــاح في القفل. عندما يكون المفتاح موضوعا في قفل الباب، لا يتمكن اللصوص بســهولة من الدخول إلى المسكن. كانت تقول الأم دائما، عندما يكون المفتاح موضوعا في قفل الباب، لا يمكن أيضــا لفاتحة الأقفال أن تولج في ثقب القفل، لا تنس ذلك، لقد تذكــر كلمات الأم بدقة. لكن كان عليــه الآن أن يلفّ المفتاح في الباب بيد، ويُمسك مقبض الباب باليد الأخرى في نفس الوقت، وأن يجذبه نحوه حتى تدور الإسطوانة في القفل. كان محظوظا وفُتح الباب، والآن عليه أن يرجع قليلا بالكرسي إلى الخلف، وأن يدفع الباب ويعود للتحرك بالكرسي إلى العتبة. في الخارج كان الطقس دافئا، والهواء لم يصبح باردا جدا.

إنه لن يصاب بنزلة برد، حتى لو كانت الثياب ملتصقة بجسده، حتــى لو كانت الأم تقول له دائما كن حذرا ولا تتعرض لتيار هواء

وأنت مبلل بالعرق، حتى لا تمرض. لم يسبق له أبدا في عمره الذي يبلغ الأربعين عاما أن خرج من باب المنزل وحده دون مساعدة. الآن كان عليه أن يفعل ذلك، فلا يمكنه أن يترك الأم وحدها هكذا، إنها في حاجة إلى العون، ربما كانت كل دقيقة ذات قيمة كبيرة. فكر لبرهة قصيرة كيف يمكنه التصرف على أفضل وجه؟

كان عليه أن يسند نفسه على الكرسي المتحرك، وأن يقبض باليد الأخرى على الباب بقوة، وأن ينتبه حتى لا يفقد توازنه مرة أخرى، فعليه أن يتحرك بالكرسي قريبا من الباب، وأن يشدّ مكابحه حتى يستند الباب إلى الحائط، غير أنه في الوقت الذي رفع نفسه من الكرسي المتحرك عاليا، كان الثقل الموازن صغيرا للغاية، فكان عليه ألّا يجذب الباب ناحيته، وأن يبقى في وضع عمودي، وأن يفعل كل شيء من خلال قوة ذراعيه ويديه، عليه ألّا يشد وإنما يضغط فقط، يسند كوعا على مقبض الباب والآخر على مقبض ذراع الكرسي المتحرك. بدأت عضلاته ترتجف من الإجهاد، هذا الارتجاف الملعون، إنه يعرفه، كان يحسّ به أحيانا في ساقيه عندما يحملّهما أكثر من طاقتهما، كان يأمل ألا تتحول هذه الرجفة إلى انقباض في عضلاته، لكنه استطاع الوقوف على قدميه وهو يترنح، وأمسك العصا بيده اليسرى واتكأ عليها.

أخي العزيز: كنت تلقي ذراعيك في الهواء وتصيح: الريح، الريح، عندما كنت تجلس في الحديقة، كانت الطاولة وكرسي الأطفال هما عالمك. أبدا، كم مرة ينبغي أن أقول لكم ذلك، كانت الأم تقول، يجب ألا يضعه أحد منكم على كرسي قبل أن يكون هناك كرسي آخر خلفه كي لا يسقط، فمن الممكن أن يقع على مؤخرة رأسه، وهو أمر خطير في مثل حالته. مثل هؤلاء الأطفال يجب

ألا يتعرضوا لأشعة الشمس أيضا. من فضلكم، لو لم تصدقوني، فعليكم سؤال الأطباء في المستشـــفى وسوف يؤكدون ذلك لكم. في الواقع عندما يسأل أحد عنك فهو يسأل تلقائيا عن صحتك. كنت أعتبر الوجوه القلقة للســائلين هجوما شــخصيا عليّ، لقد تعلمت أن أتفادى الســؤال عن مســتقبلي الدراســي، لأنك كنت بمثابة الطابور الخامس بالنســبة لي، وكان مجرد السؤال عنك دائما يجعلني غير قادر على الدفاع عن نفسي. لم نتركك لحظة واحــدة بمفردك. هل أصابكم الجنون، طفــل مثل هذا لا يمكن تركه وحيــدا، فمن الممكن أن تقع حادثــة والصغير كما تعلمون عاجز. كل شيء كان يتم إحضاره لك، وكانت رغباتك التي يرونها في عينيك يتم تحقيقها على الفور، يجب ألا يفتقد شــيئا، ينبغي أن يحصل على كل شيء مثل الأطفال الآخرين.

أما كيف تريد ذلك، فلم نسألك هذا السؤال أبدا.

بصعوبة كنت تحافظ على توازنك عندما كنت تركب الدراجة ذات العجلات الثلاث، وقد قمت أنا بربط قدميك على الدواسات بأحزمة قديمة للتزحلق على الجليد. ماذا يحدث لو أنه سقط؟! كانــت الأم تقولهــا عندما كان يتم دفعك مــن الخلف وأنت فوق الدراجــة، كنــت تنجح في الســير والاندفاع إلى الأمــام، بينما كنت في نفس الوقت على وشــك الانزلاق من مقعدك دائما من الجانب. سوف يستطيع كل شيء مع الوقت، عليكم ألا تتسرعوا. هناك أطفال آخرون يمكنهم ركوب الدراجة ذات العجلات الثلاث ولكنهم ليسوا أكثر سعادة لهذا السبب.

دعه فــي حاله، حينها يدرك فقط مــاذا ينقصه، لكنك كنت تبدو سعيدا حين كنت تجلس إلى الطاولة الصغيرة في الحديقة

أو عندما كنت تطل من النافذة. فقط لا تشد الباب ناحيتك، قال الابن الأصغر في نفسه. يجب عليه أن يحافظ على توازنه، وأن يحترس حتى لا يدور حول نفسه مرة أخرى، كان يعرف ذلك، لأن كعبيه لا يلمسان الأرض، ولأنه يمشي على أصابع قدميه، كما قال طبيب العظام ذات يوم. رغم ذلك كان عليه أن يترك مقبض الباب للحظة، وهو محافظ على توازنه، وأن يمد يده إلى الأمام ويحاول الإمساك بالسور الحديدي. بدا لنفسه وكأنه رائد فضاء في الفضاء الخارجي وقد تحتم عليه ترك محطته الفضائية. لو لم يتمكن من الإمساك بالسور الحديدي فسوف يسقط من فوق سلالم الدرج وتتهشم عظامه، لكن عليه ألا يفكر في ذلك الآن. استدار مرة أخرى ورأى ساقي الأم على السرير، بينما قدماها العاريتان مرفوعتان في الهواء.. ترك يده، فأحس بالهواء في منخاريه وسمع نفسه ينفخ مثل حصان. انتابه الفزع وكان يود لو يهرب من الموقف، لكنه لم يستطع الحركة، أصابه الدوار وكان على وشك السقوط لكنه نجح في الإمساك بالسور الخشبي، وتشبث به بكل قوته.

مرة أخرى سمع صوت ضجيج ماكينة الحصاد. دق قلبه بقوة، وانسابت قطرات العرق إلى أسفل جسده. إنك تعرق مثل أبيك! كانت الأم تصيح دائما، والنساء لا يرغبن في الرجال الذين تفوح منهم رائحة العرق، عليك أن تتذكر أن العرق فيه شيء مبتذل، وعليك أن تتجنب المواقف التي يمكن فيها أن تبتل بالعرق.

كان ڤالتر يسير بشكل جيد، وتغلب على الارتفاع الخفيف دون صعوبات، ولم يلهث! هل مازلت تتذكر يا أبي؟ كان الكلب يطيع كل كلمة منك، وعندما كان يمتنع عن تنفيذ أمر لك، كنت

تشده من الجنب بالسلسلة شدة قوية، كنت أخشى دائما أن تنزع رأسه عن جسده. لســاعات طويلة كنت تضع آثارا للكلب هارو، في الحقــول المقصوصة، والمروج، وفي الغابات والأودية الضيقة العميقة، في خطوط مســتقيمة، هنا وهنــاك، في تفرع الطرق يمينا ويســارا، كنت تقوم بعمل خدع له، وترمي أشــياء وعليه أن يتعقبها ويبحث عنها ويعيدها إليك ثانية. شيء لا يمكن تصديقه تقريبا ما كان ينجزه هذا الحيوان!

نادرا ما فشل في تحقيق الهدف، من حين لآخر وعندما كانت توجد فــي الطريق آثار حيوانات بريــة، أو كان يرى فجأة ظبيا أو يشــم رائحته، عندها لم يعد من الممكن السيطرة عليه، فكان ينطلق مندفعا خلــف الحيوانات وهو ينبح، وفي كثير من المرات كان يقوم بتمزيق الظباء. لو أســتطيع الإمســاك بــه ذات يوم، فسوف أقوم بإطلاق الرصاص عليه وقتله دون سابق إنذار، كان يصيح حارس الغابة في غضب. أنا لا أنصحك بذلك! كنت تقوم بالصفير من خلال أصابعك، لكن عندما يكون الكلب بعيدا، كنت تحس بذوبان نفــوذك، ويصبح عندها صفيرك دون تأثير. فيما بعد وعندما عاد هارو وهــو يلهث ورغوة اللعاب حول فمه بينما كانــت خاصرته ترتعش، أخذته من رباط الرقبة وقمت بمعاقبته بضربات قاســية، وفي النهاية كانــت هناك تمارين لعقابه أدّاها وهو مغلول بالسلسلة.

ذات مرة رأيت هارو وقد انتابته حالة تمرد عليك، كان مزمجرا وحاول عضّ يدك، لكنك أمســكت به من رباط الرقبة، وأنت في حالة غضب شــديد، وحالة انتصار، وكأنك كنت تنتظر مثل هذه اللحظة منذ زمن طويل، فقد قمت برفعه وقذفه في الهواء حتى

ســقط على الأرض. اعتقدت أنا للحظة أن الكلب قد مات، لكنه بدأ في اللهاث ونهض مرة أخرى واتجه إليك وبدأ في لعق يدك، فالكلاب تنحدر من ســلالة الذئــاب، كررت لي ذلك مرة أخرى، إمــا تكون أنت القائد وإما أن يكون هو، بإمكانك أنت وحدك أن تقرر ذلــك باعتبارك مالكا له. وخضع الكلــب لك أكثر من ذي قبل؛ لكن مطاردته للظباء ظلت مشكلة لم تُحل.

لمــح هارو ظبيا وهو علــى بعد ثلاثين أو أربعــين مترا منك، عندها لم يكن في الإمكان كبح جماحه، لأن غريزة الصيد كانت قد تغلبت عليه. رأيتُ كيــف أخرجك الغضب عن طورك حينها يا أبي؛ لقد دفعت بعقوباتك إلى آخر مدى، لم تســتطع أن تقتل الكلب، ربما كنت بهذا الحــادث قد وصلت إلى نقطة اللاعودة؟ ربما كان يتحتم عليك أن تجد له بديلا آخر؟ ربما تتخير ســلالة أخــرى من الكلاب تكون أكثر ملاءمــة؟ هل ارتكبت أخطاء عند تربيتــه؟ غير أن فكرة خطرت على ذهنــك فجأة: لماذا لا تهرب الأبقــار من المراعى؟ إن الســور الكهربي يمنعها، ذلك الســلك الرفيــع يكفي، مرة واحدة فقط تلمس الأبقار الســلك وتصيبها الصدمة، بعدها يصبح كل شــيء علــى ما يرام. وبدأت أنت في تطوير حاجز كهربي متحرك، واختفيت لعدة أسابيع في ورشتك داخل سرداب البيت. في البداية كان الجهاز كبيرا جدا، إنه يعوق حركة الحيوان. لقد أصبح أكثر ثقلا بعدها. وأخيرا عثرت على الحل الأنيق، كما ســمّيته حينذاك؛ وصار الجهاز يعمل بشــكل مثالــي، كان صغيرا وخفيفا ومن الممكــن تثبيته في رقبة الكلب دون أية مشــكلات. كان ذلك في بداية الخمســينيات، حيث لم تكن أجهزة التحكم عن بُعد متوفرة للشــراء في كل المتاجر بعد.

حتى مسافة ثلاثمئة متر كان الاستقبال في الجهاز ممكنا، ولمسة صغيرة كانت تتسبب في صدمة كهربية مؤثرة. لقد حدقت في عينيّ برهة قصيرة، كلا؛ إنك مازلت أصغر من أن تصبح فأر تجارب. سأجربه في نفسي أولا. في البداية كنت تريد أن تربطه ببساطة تامة حول الرقبة، ثم قلت: أريد أن أعرف بالضبط كيف يعمل، خطوة مقابل خطوة يجب أن يكون الاختبار، ثم حسمت الأمر بأن تحمله في يدك، وأصدرت إليّ تعليمات دقيقة كان عليّ أن أكررها بالترتيب الصحيح. لم أكن مستريحا تماما للأمر، لكنك أكدت لي أن شيئا لن يحدث، كانت الصعقة في الواقع قوية، لكنها لم تكن على أي حال مهددة للحياة.

كلا، أنا الذي سوف أتلقى الصدمة الكهربية، وليس أنت، تماسك، فقط معك جهاز الإرسال، إنه لأمر مضحك بالفعل، لا تكن أبلها! إن الجهاز في يدك يولد النبضات فحسب، أتفهم؟ النبضات فقط، هي أيضا كهربية بالفعل، لكن ليس لها أي تأثير على الإطلاق. لا تجعلني أجن، صحت أنت يائسا، لن تشعر مطلقا بأي شيء، إنني أضمن لك ذلك، لأن الصدمة الكهربية سوف تُثار عندي، كلا، لن أربطها حول رقبتي، يمكنني أيضا تجربتها على يديّ، كي أرى إذا ما كان اندفاع التيار الكهربي كافيا، عليك فقط أن تضغط للحظة قصيرة جدا على هذا الزر الأحمر، عليك أن تلمسه فقط، ولكن عندما أصل أنا إلى هناك على الربوة العالية بجوار شجرة التنوب.. لقد تحركت أنت بخطوات سريعة بعيدا عني، وأمسكت أنا بجهاز الإرسال بعيدا عن جسمي قدر الإمكان، أمسكته بيدي الممدودة، محاذرا كما لو كان قنبلة.

كان حجمك يزداد ضآلة، وثقل جهاز الإرسال كان يضغط ذراعي إلى الأسفل، ولأنه كان عليّ أن أحمل الجهاز باليد الأخرى، صرت أقوم بتبديل اليد. انتابتني حالة من الاضطراب على الفور. مازال هناك عشرون مترا وتصل إلى المكان المحدد، حيث توجد شجرة التنوب، تمنيت أنك قصدت هذه الشجرة، وليست تلك الأبعد ناحية اليمين، كلا، كلا، لقد كان صحيحا؛ فيداي كانتا ترتعشان بسبب الانفعال والإجهاد. وعلى مقربة كان الجهاز على وشك الانزلاق والسقوط فوق العشب المبلل. والآن أغمض عينيّ وأضغط سريعا على الزر الأحمر، لقد قفزت أنت في الهواء، الزر صار لا يعمل، وسقطت أنت على الأرض وظللت راقدا للحظة، من المحتمل الآن أنني قتلت أبي، جال في خاطري ذلك، لكنك نهضت ثانية ولوحت بذراعيك في الهواء: تعال هنا، سمعتك من بعيد وأنت تصرخ، جريت نحوك، هل جننت؟! ألا تفهم ماذا تعني: «اضغط قصيرا مرة واحدة»؟!

لقد تعلّق الزر: صحتُ في المقابل من بعيد، غير أن الأوان كان قد فات بالفعل. ماذا؟! صحت أنت وانحنيت كي تلتقط الجهاز، لقد تحولت «ماذا» إلى صراخ وإلى لعنات غاضبة، ومرة أخرى قفزت أنت في الهواء وتأرجحت ساقطا على الأرض، هل أنت في الحقيقة معتوه أم أنك تريد أن تقتلني؟! فقط عليك أن تضغط ضغطة قصيرة. لكن الزرّ تعطل، أجبت أنا خائفا، وليس في استطاعتي عمل شيء. صحت أنت قائلا: آها! يجب الآن حلّ هذه المعضلة، وسيعمل الجهاز بشكل مثالي. كنت تلهث بعض الشيء في ذلك الوقت، لكنك كنت سعيدا. وقلتُ: أنا مقتنع أنني بهذا الجهاز سوف أُعيد الكلب إلى صوابه. وهذا بالفعل

ما حدث، لمسة واحدة قصيرة، وقفز هارو في الهواء ثم سقط على ساقيه إلى الخلف وظل ينبح ثم نهض مستعطفا. بعد ذلك صار يطيعك طاعة عمياء، وكأنك كنت تعطي الأوامر مباشرة إلى مخّه!

لقد استوعب هارو الدرس، فكان عندما يرى ظبيا من بعيد، يطوي ذيله إلى الوراء فورا وهو يئن. البعض في نادي الكلاب كان متحمسا، والبعض الآخر كان يرى في هذا التصرف تعذيبا للحيوانات، وكان ردُّك: إن هذا هراء، فالجهاز آدمي تماما، أفضل بكثير من الضرب، فليس جروح هناك على الأقل، وأنا مقتنع أن الجهاز سيحقق نجاحا كبيرا، هل مازلت تتذكر يا أبي؟ لقد قمت بتسجيل اختراعك، وكان حجم مبيعاته كبيرا، مازلت أتذكر ذلك بالضبط، وكنت دائما تقوم بتطويره، ووصلت به إلى أحدث مستوى من الناحية الفنية، والمسافة التي كان فيها الجهاز فعالا كانت دائما تكبر، صارت نصف كيلو متر، وبعدها صارت نحو كيلو متر كامل!

في ذلك الوقت قمت بتأسيس شركة، وفتح مكتب هندسي خاص بك، وقد أعدت بناء سرداب المنزل، وتم تجهيز ورشة، ثم قمت بتعلية المنزل وفتح مكاتب به..

دائما كان رجال يدخلون ويخرجون من منزلنا، واستطعت بيع الجهاز إلى الأرجنتين وبارجواي والبرازيل، حيث يتم استخدامه لتدريب الكلاب، وبخاصة في المزارع الكبيرة هناك. أيضا إلى دول أوروبا الشرقية كان تصديره سهلا، كنت دائما تقول: لقد قمت بتطوير هذا الجهاز للكلاب، وعندما يقومون باستعماله للسجناء، فهذا ليس من شأني، ولا يخصني الأمر.

كيف حالك الآن يا أبي؟ ألا تريد الكلام بعد؟ ألا تستطيع ذلك؟ لو شعرت باستياء، فعليك إعطائي إشارة بذلك، كأن تلمس رأسي بيدك أو تضرب بقدمك خفيفا في جانبي. هل تحس بالجوع أو بالعطش؟ أو تريد قضاء الحاجة على وجه السرعة؟ من فضلك دعني أعرف ذلك في وقت مبكر؟ سوف نستريح لفترة قصيرة فيما بعد وأنت في وضعك العالي متأرجحا تشعر بالمتعة.

أليس كذلك؟ يا لها من ليلة، رائحة الصمغ تفوح من أشجار التنوب المقطوعة، شيء رائع. لمدة ست سنوات كان هارو مطيعا للغاية، وقد فاز خمس مرات في مسابقات إقليمية وقومية ودولية بمركز ممتاز. مرة واحدة فقط حصل على جيد جدا، عندها قام هارو بعضّ خبير الاختبارات في ساقه، بعد ذلك بدأ هارو فجأة في مهاجمة الأطفال، فعندما هجم على ابن الجيران ذي الأعوام الستة وأصابه في ساقه، كان الأمر بالنسبة لك واضحا: إنه لم يعد طبيعيا، إن الكلب أصبح مريضا وإلا فإنه لن يقوم بمهاجمة الأطفال.

سأطلق عليه النار وأقتله، عليك الذهاب إلى الطبيب البيطري، فلديه وسائل أخرى، قالت الأم. لا، إن الرجل يقتل كلبه بنفسه، لكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك في الحديقة، والجيران سوف يسمعون طلقة الرصاص! كنت ترد قائلا، لا توجد أي مشكلة. ثم قمت بتركيب كاتم الصوت بحركات مدربة فوق مسدسك الخاص ماركة ڤالتر ب. ب. ك، وأحضرت قطعة سجق من الثلاجة، بعد ذلك قمت بالصفير من خلال أصابعك مرة واحدة، وقلت لي: اذهب إلى الناحية الأخرى من المنزل، فلا ينبغي أن ترى شيئا،

وعندما عدت كان وجهك شاحبا، وقلت انتهى الأمر، نستطيع الآن إحضار جامع الحيوانات الميتة.

أخي العزيز: كل شيء كنت تحاكيه في عالمك الصغير. بعد نزهة على البحيرة، أحضروا لك حوضا من البلاستيك مليئا بالماء فوق الطاولة، وكنت تضرب وتلعب في الماء. صاحت الأم بحماس: انظروا إليه، كيف يتمتع بمزاج طيب! قال الأب متذمرا: أنا لا يمكنني فعل شيء، وهذا المشهد يثير الكآبة في نفسي. هذا هراء، قالت الأم، ألا ترون وجهه السعيد؟! من المعاقين بالذات يمكن أن يتعلم الأصحاء شيئا!

أعتقد أنك كنت تشعر في ذلك الوقت بالرضا، حتى إنك ربما كنت سعيدا في عالمك. بحركات طائشة كنت تضرب على الماء في الحوض. ينبغي عدم تركه ولو ثانية واحدة بعيدا عن أعيننا، ولو ثانية واحدة، حتى لو كان عمق الماء عشرة سنتيمترات، يجب ألا يخاف، فهذا من شأنه أن يكون ضارا. رغم ذلك فقد تدربنا سويا على الغطس. بعد عدة محاولات فاشلة كنت تستطيع إغلاق الفم في اللحظة المناسبة. ذات مرة كنت تتنفس عن طريق الأنف، ولفت تأوهك انتباه الأم، قلت أنا: ذبابة خيل كبيرة أفزعته. قالت الأم: إن رأسه مبللة، والآن يكفي هذا. وجلست أنت في حالة دفء، محميا من كل نفحة هواء، ملفوفا ومغطى بفوطة استحمام، في الشمس، بمنديل قماش معقود من كل الزوايا.

نعم، يا أبي العزيز، من حسن الحظ أني لم أكن كلبك، من حسن الحظ أني كنت ابنك، ابنك الذي كان يحبك.. من تحبّه أكثر، كان رفاقي في المدرسة يسألون: أمك أم أباك؟ أنا أحبهما

على حد سـواء. نعم، لم تكن أبا غير مبال. ذات شـتاء ربما كان عمري حينئذ أربع سـنوات أو خمسـا، وكان الثلج يتساقط دون توقـف، وكان ارتفاع هذه الفخامـة البيضاء يصل للركبة، ونحن الأطفـال كنا نحاول بناء بيت من الثلج، وبالفعل قمنا بعمل كومة كبيرة مـن الثلج بمعاولنا الصغيرة، وعندما أردنا عمل فجوة بها إذا بها تنهار، وأخيرا استطعنا عمل تجويف، لكن مساحته كانت صغيرة، بحيث لا يسمح إلا بوجود طفل واحد فقط وهو منكمش، وعندما عدت أنت من العمل إلى المنزل، وعدتنا بأن تبني لنا قلعة حقيقية في يوم السـبت التالي، إذا ما اسـتمر بقاء الثلج، ومن النافذة في الصباح نظرت وكنت قلقا، لقد تسـاقطت الثلوج مرة أخرى أثناء الليل.

فـورا عقب الإفطار بدأ العمل، وفـي تلك الأثناء تجمع عدد من الأطفال الأكبر سـنا، وقلت لنا سـوف نبنـي وفقا لطريقة شـعوب الأسـكيمو، فهم يقومون بمعاولهم بعمل طوب من الثلج ويضعونه طبقة فوق أخرى، سـنبني بنفس الأسـلوب، لكننا لن نقوم ببناء أكواخ الأسـكيمو والتي هي على شـكل قبة، بل سوف نشيد قلعة حقيقية من الثلج ذات بنايات مختلفة. بعض الأطفال قاموا بتجهيز الطـوب الثلجي، وآخرون قامـوا برصّها طبقات فـوق بعض وفقا لتعليماتك. كنت أنـت المهندس المعماري وكبير العمال والمسـاعد في نفس الوقت. في البداية كان هناك غرفة أو غرفتان، ثـم توالت غرف أخرى. ولفترة وجيزة جدا تراجعت درجة الحـرارة إلى ما تحت الصفر، وبعـض الأطفال أحضروا دلاء مليئة بالماء السـاخن كي نتمكـن من تجميد القلعة، لقد كنا نعمل بهذا المبنى العملاق وكأننا نحاتون.

وفي النهاية يا أبي العزيز، عندما قمت بتشييد برجين آخرين بسلالم منحوتة من الثلج يمكن الصعود عليها بالفعل، وعندما انتهينا؛ وكأول الصاعدين على هذا الدرج؛ فقد تمكنت من نحت علم في جدار القلعة، عندئذ أيقنت أن حلمي قد تحول إلى حقيقة، وجلسنا في المساء منهكين حقيقة، وفي المساء؛ في الحجرات المضاءة بالشموع جلسنا نتناول عشاءنا، وقد تملكتنا حالة من النشوة؛ حتى إن بعض الأطفال، كانوا يريدون قضاء الليل في القلعة. أنا لم أعد أتذكر ما إذا كنت قد سمحت لهم بذلك، أم لا؟.. لقد نجحت في ذلك الوقت يا أبي العزيز في أن تسحرني، تسحرني على أرض الواقع! هل ترى يا أبي أن الغابة ليست مظلمة تماما، فالطريق في الليل أيضا يمتد بين الأشجار وكأنه شريط مضيء. نحن نسير في الطريق الصحيح، فالآن صار الوادي الضيق خلفنا، وبعدها توجد بعض الحقول، وآخر صعود لنا سيكون بعد ذلك. وقريبا جدا منا، كان الابن الأصغر المعاق قد سقط على الأرض، فوق آخر درجة من السلم الذي يقود إلى المنزل، لقد فقد توازنه ودار حول نفسه ووقع على الأرض. وكان كوعه وفخذه الأيمن يؤلمانه، لكن لم تكن هناك أي كسور.

والآن كان عليه أن يمد يده ويمسك بالعصا، التي كانت تبعد عنه بعض الشيء. لقد ضغط عليها بذراعه في اتجاه جسده، وبقدميه تجاه إحدى درجات السلم حتى لا تنزلق إلى الجانب عندما يرفع نفسه عاليا وممسكا بكلتا يديه بالسور. كانت ركبتاه مضغوطتين من جرّاء توتر عضلاته، وكاد يفقد توازنه مرة أخرى، لكنه تمكن من النهوض، بعد ذلك كان عليه أن يسير في

ممشــى الحديقة إلى ســلالم الدرج التالية. إنه يمشي بطريقته الخاصة، وساقاه منفرجتان ومثنيتان بعض الشيء، ويجر قدميه على الأرض، بينما كان حذاؤه في الجانب والمقدمة مهترئا.

من حين لآخر كان يبقى عالقا في أحد أجزاء البلاط المرتفعة بعض الشيء، لكنه تقدم إلى الأمام بشكل جيد واقترب من الدرج. كان يشعر طوال الوقت بقلق غريب كلما ابتعد عن البيت، كان هذا الخوف يُسرع من دقات قلبه. يحس أنه يمشي فوق أرض مبلولة طرية، والآن لم يعد يخشــى شيئا، إنه يريد فقط إحضار النجدة لأمه، وحاول وضع قدمه اليسرى فوق درجة السلم التالية، ولكن حذاءه انزلق وبدأت ســاقاه في الاهتزاز من الإجهاد، وكان عليه أن ينتظر لحظة، أن يستريح، وإلا فإنه لن يستطيع السيطرة على عضلاته، وسوف يفشل الجسد فجأة في إكمال مهمته.

صرخ: النجدة! لكن صوته لم يصل بعيدا، فقد بح رنينه بعض الشــيء من جــراء الإنهاك، تنحنح وصرخ مــن جديد، لكن هذه المرة بصوت أقل حدة. وبحرص حاول مرة أخرى أن يضع القدم اليسرى فوق درجة السلم التالية للهبوط، وأن يجر القدم اليمنى دون أن يفقد وقفته، ولكي يستطيع فعل ذلك كان عليه أن يقبض وعلى مسافة صحيحة بكلتا يديه وبقوة على السور. لقد نجح في النزول درجة من السلم.

هل تسمع؟ قال ڤالتر لأبيه، إنها بومة صغيرة، نسمع صياحها رغم ضوضاء ماكينات الحصاد، لماذا لم تعد في الحقيقة تتكلم يا أبي؟ لقد كان ذلك يحدث في الماضي أيضا، عندما تكون لسـبب ما مســتاء، كنت لا تتحدث معي لأيام وربما لأسابيع طويلة. كان يجــب عليّ أن أقدم لك اعتذاري رســميا، كنت غالبا ما أشــعر

بالذل في ذلك الوقت. طالما كنت صغيرا، لم أطق السكوت، وكان عليّ أن أخضع، لأني كنت في حاجة للاتصال بك.

لكن وبمرور الزمن بدأت تحمُّل السكوت، فقد تدربت عليه، وكنت في كل مرة أحقق رقما قياسيا قبل أن أستسلم وأخضع لك. في الوقت الذي كنت به في المدرسة الثانوية، قاسيت لأسابيع وشهور طويلة، وجعلت من هذا الشأن رياضة خاصة بي، وخلقت حيزا شاسعا لنفسي، ولم أعد أحس بأنني مذنب. في بعض الأحيان كنت أقوم بإبلاغ الأم خاصة تقديرات اختباراتي الرديئة بصوت عال، حتى تستطيع أنت أيضا أن تسمعها، وكنت أحس بالانتصار في كل مرة، عندما لا تتمكن من السيطرة على غضبك، كنت تصرخ: هل أنت في الحقيقة غبيٌّ أم أنك تتصنع ذلك فحسب؟ وكنت أجيب: كلاهما، إن هذا في الواقع هو أسوأ شيء.

لكن منذ متى نتحدث معا ثانية؟ على حد علمي أنا لم أعتذر لك بعد! لكن الحساب بيننا جاء لاحقا. كان الوضع يتأزم دائما، وصار غضبي السريع مساويا لغضبك، وأصبحت عُرضة للجُرح مثلك تماما، في نفس الوقت الذي نمت فيه قواي الجسمانية، لكنني كنت أريد أن أكون مختلفا عنك بالمرة. مهما يكن فلم أرد أن أكون عقلانيا، أو مهندسا باردا، إنما كنت أريد أن أكون فنانا، وقبل كل شيء عاشقا حنونا لا يشبع. لكني في الواقع كنت فاشلا في المدرسة وشخصا أحمق. وذات مساء حدث ذلك؛ كنا نتحدث عن أخي، كنت تريد إيداعه في مدرسة داخلية، وتقول إن ذلك بالنسبة له هو الأفضل كي يمكنه الاستقلال عن الأم، والاعتماد على نفسه، لكني كنت أعارض ذلك. من يا ترى كان على حق؟

اليوم أعتقد أنني لم أكن مقتنعا بما حدث، فقد حاولت في ذلك الوقت التأثير على رأيــك وتغييره، وحاولت إقناعك بقوة، لكنك كنت تقول: لا نقاش، وكنت تُنهي كل حديث بيننا، أنا الذي يقرر، فأنا المسؤول التربوي وليس أنت، لأنني في النهاية أنا الأب.

لم تعطني إجابة، كنت في ذلك الوقت في الثانية والعشــرين من عمــري، وأنت في منتصف الخمســينات، وقد قبضت على جريدة«نويا زيورخر تسايتونج»، وأخذت تفاحة من طبق الفاكهة، وخرجــت إلى الشــارع مع الكلب، خليفة هــارو. في هذا الوقت بــدأ العــد التنازلي، كنت أحس أن في داخلي قنبلة على وشــك الانفجار، وقمت بملاحقتك في الشارع. اليوم لن أستسلم، اليوم سوف أجبرك على الكلام معي، إن معي الحق في الحصول على ردّ منك، أنا لا أريد أن يكون أخي إنســانا تعيسا، وأن يعيش في عذاب كل يوم في المدرســة الداخلية، وأن يعاني من التواءات لا تُطــاق حتى يرتــدي المعطف، وأن يصبح مبلــلا من العرق حتى يدخــل في البنطال، وأن يربط الحزام حول وســطه. كلا، أنا لا أريد ذلك، ينبغي الاستمرار في معاملته كالأمير الصغير، أنا أتفق مع رأي الأم، وكنت تطوي الجريدة بطريقة تســمح لك بقراءتها وأنت تمشــي، لقد قمت بقضم التفاحة بحماس، وأكملت سيرك دون الالتفــات إليّ، لكنني قمت بالجري خلفك وصحت: ســوف أجبرك على الكلام معي، صدقني.

وشــعرت حينها بخفقات قلبي القوية السريعة وصوتي الذي أصبــح غليظا من جرّاء الانفعال. لكنك لــم تنطق بكلمة وقمت بطيّ الجريدة من جديد كي تســتطيع تكملــة قراءة المقال الذي بدأته، وســرت في طريقك غير مكتــرث. أصاب الفزع امرأتين

من المارة فابتعدتا عــن طريقنا، صرخت فيك، وقمت بتوبيخك، لكــن كل ذلــك كان دون جــدوى، ولم يأت رد فعــل من جانبك، وخشــيت فعلا من الفشل، وكان عليّ الاستســلام. وفكرت في طريقة جديدة، فقد كنت أعرف عنك أنك تصبح ســريع الغضب لو قام شــخص بلمسك أو دفعك بعض الشيء، وكنت تقول ذلك مرارا، حينها يكون رد فعلك قويا، وكأن هذا الشيء يوجد داخلك بصــورة غريزية أو بالفطــرة. عندها قمت بدفعــك خفيفا في الكتف، فصار وجهك شــاحبا، ورجعت بيدك اليمنى إلى الوراء استعدادا لتوجيه ضربة، وأخذت وضع الهجوم مثل ملاكم، وقمت بالتحديق فيّ بعيون صغيرة محتقنة بالدم! وقلت أنت: مرة أخرى ســوف أقوم بضربك! وكنت أنا مســتعدا وصحت: تستطيع فعل ذلك ولكني سأرد! ظللنا لثوان معدودات يحدق كل منا في الآخر. وتركت يدك لتعود إلى وضعها الطبيعي، ومتنفسا بصعوبة قمت بثني جريدة«نويا زيورخر تسايتونج» بقوة وقد كنت تقبض عليها، وألقيــت بالتفاحة بعيدا.. بعد ذلــك ولفترة زمنية طويلة كان كلٌ منا يتجنب الآخر، ولعدة أشــهر لم يتحدث أحدنا مع الآخر. أما الآن يا أبي فقد أصبحت تحت سطوتي، أستطيع الآن تحطيمك فقد صرت عاجزا، ولا أحتاج الكثير حتى أبثّ في نفسك الخوف والفزع، وستنظر إليّ بعيون يملؤها الرجاء، أيها الكائن اليائس!

إنك الآن تتململ فــوق ظهري كدمية متحركة، بعد أن صرت بائسا. كنت تخشى طوال حياتك ذلك اليوم وتقول: لا ينبغي أبدا أن تفقد الســيطرة على نفسك، إياك أن تصبح عاجزا أو مغلوبا على أمرك، هل أقوم برميك على الطريق السريع مثل كلب، تركته العائلة وذهبت لقضاء عطلة؟ أو ألقيك في صندوق القمامة مثل

طفل غيــر مرغوب فيه؟ هل أقوم بتخليصك من حياتك وطعنك بسكين الجيب الذي تحمله؟ أم أُطلق عليك رصاصة الرحمة من مسدســك ماركة ڤالتر ب. ب. ك؟ فكاتم الصوت ســوف يجعل الدويّ غير مســموع، بعدها يمكنني دفنــك دون أن يدري أحد. لا تخش شــيئا يا أبي العزيز، نحن نســتمر في السير ولا شيء ولا أحد يســتطيع أن يوقفنا. سنكمل ســيرنا في الليل، ونصعد إلــى الجبل، إلى بيت عطلة نهاية الأســبوع. هل تريد أن تقنعني بأنك كنت تكســب الكثير من المال في مجال الأدوات الكهربائية من خلال عقود قانونية؟ والمكالمات التليفونية الكثيرة الغامضة؟ غالبا ما كنت أستيقظ في الليل مذعورا، وأيضا في النهار كانت الاتصــالات الهاتفيــة لا تنقطع، وعندما كنــت أرد كانت المكالمة تنقطع. ظنت الأم أن لديك عشيقة، وكنت ترد، هذا هراء، فليس لديّ وقت لمثل هذه الأمور.

لكن في الواقع كان هناك ما يحدث. بأي نوع من أنواع الأبحاث كنــت تقوم فــي الحقيقة؟ ومــاذا كانت تحتوي هــذه الصناديق المعدنية الملحومة التي كان يتم نقلها للمنزل في شاحنات مبردة؟ هذه الشــاحنات كانت تحمل لوحات معدنية أجنبية، من بلغاريا ومن تشيكوسلوفاكيا ومرارا من بارجواي والأرجنتين. وماذا كان نــوع هذه العقود؟ حتى وقــت متأخر من الليــل كنت تعمل أنت وصديقك الطبيب، طبيب الأشــعة، أنــت لا يمكنك إنكار ذلك، وفي كثير من الأحيان كان يقضــي الليل في منزلنا، وكنا نتناول طعام الإفطار معا، لــم تكن الأم غير مبالية عندما كان يغازلها. فســلوكه كان أكثر منك رقة! لقد كان هذا حقيقيا. فكان يشرب القهــوة الباردة في فترات الراحة القصيرة، عندما كنتما تعودان

مـــن المعمـــل، ولا يرميها في جوفه على مرتـــين، كما كنت تفعل، كان يمسك الفنجان بإصبعين من المقبض، ويمدح النكهة الرائعة للقهوة ويحتســـيها بهدوء. رجل مهـــذب، كانت الأم تقول، وكانت معجبـــة به، وقمت بالانفصال عنه في وقت لاحق لهذا الســـبب. فـــذات مرة قمت بضبطهما معا. كان ينبغي أن تطير إلى بوينس آيرس، ونسيت جواز سفرك في البيت، وقمت بمباغتتهما، وهما يرقصان رقصة ڤالس لفرانز ليهار فوق الأرضية الخشبية، وكانا يحضنان بعضهما.. موسيقى ليهار كنت تبغضها كثيرا.

لقـــد لكمت صديقك في وجهـــه، عرفت ذلك لاحقا من أمي، لم يدافع عن نفســـه رغم نزيف أنفه، وقمـــت بطرده من المنزل. وانتهى الأمر بالنســـبة لـــك بهذه النهاية، لقـــد كان يخاف منك كثيرا، ولذلك لم يستطع إقامة علاقة مع الأم. صديقك الطبيب مات ميتة غريبة فيما بعد، قيل إنه جادث في جبال الأنديز، لكن بقي الأمر غامضا إذا مـــا كان قد مات مقتولا. ما نوع التجارب التي كنتما تقومان بها في القبو؟ كنت أســـمع في بعض الأحيان صريـــرا أو ضجة، أم أن ذلك كان فقط مجرد تهيُّؤات؟ هل كنت تقـــوم بإصلاح أجهـــزة الراديو الجديدة؟ أم كنـــت تعمل لتطوير ماكينات المطبخ؟ لكن لماذا كانت تفوح هناك رائحة نتنة لســـمك ميت؟ لماذا كنت أجد ســـمندر المـــاء المُعدّ في الأوعية الزجاجية؟ ألم يكن بعضها له رأســـان؟ أم كان ذلـــك مجرد خدعة بصرية، ففي المياه العكرة لم أستطع النظر بصورة صحيحة؟

فيما بعد أردت تعليمي قوانين مندل وكأنها تعاليمك الكنسية، وكأنك قمت باكتشـــاف معادلات لحل لغز العالم، لكن وعلى نحو مفاجـــئ بدأ الانحدار، فبعد النزاع البغيض مع زميلك في العمل

وصديقك، لم تعد نفس الإنسان، أحسست بأن الحياة قد خانتك وأيضا نجاحاتك المهنية باءت بالفشـل، والشاحنات لم تعد تنقل منتجاتـك إلا نادرا، والمكالمات الهاتفية فـي الليل صارت قليلة، وسـرعان ما توقفت. وفجأة أصبحـت مريضا، وأصبت بمرض تكس الأقـراص الفقرية، وكنت تصرخ من الألـم، وتتلوى على الأرض، وتمد ساقيك وتقلب الطاولة. وعندما كانت نوبة تقلص الأعصاب تفاجئك تفقد صوابك، كنت تضرب بعنف على الجدران بيديك حتى تدمى وتصيح: أنا لا أتمنى ذلك حتى لأسوأ أعدائي.

كان عمـرك في ذلك الوقت يربو قليـلا على الأربعين، أزمة منتصف العمر، كما كنا سـنطلق عليهـا اليوم، لكنها في حالتك خاصة تركت فيك أثرا كبيرا، وأصبحت حياتك كلها مهددة. من الذي سـيتولى إدارة الشركة؟ واضطررنا في وقت لاحق إلى بيع السيارة والبيت. وانتهت حياتنا الجميلة، سأصبح مقعدا عاجزا، كنـت تقول إنكم لا تدرون ماذا يعني ذلك لرجل مثلي، أنا لا أريد أن تسـتمر حياتي هكذا، بهذا الشكل لا أريد أن أعيش، أن أقتل نفسي بالرصاص أفضل لي.

هل كنت تسـمعني طوال الوقت؟ هل مازلـت تتذكر كل هذه الأمور؟ بعد ذلك تعلق الأمر بالسـؤال ما إذا كنت سـتُقدم على إجراء عمليـة جراحية؟ كنت تصرخ قائـلا، إن هذا أمر خطير للغاية، لا أريد أن يقترب أحد مني بمبضع الجراح.

ثـم قمت بالبحث عن طبيب يعالج بالمـداواة الطبيعية، وكنت تجرّ نفسـك إلى التاكسي، وتبدو مثل أحدب نوتردام، وتتجه إلى منطقـة إبينتسيلشـا. أنت، بالذات أنت مـن كان ضدّ مثل هذه المعالجات الفاشـلة، وكنت لا تؤمـن إلا بالمنهج العلمي على نحو

جـــازم. كنت تترك نفســـك كي يلفّوك في أحزمـــة دافئة، وكانوا يضعون لك قائمة خاصة بالطعام: على أي حال أنا لا أريد نبيذا أبيض أو أي شراب مسكر فإن ذلك ينبه الأعصاب بشكل مفرط. وقد بدت هذه العلاجات ناجحة، رغم الانتكاسات القليلة، والتي كان يتم علاجها وتزول الأزمة الصحية. إنه عبقري، هذا الطبيب، وقمت بتبجيله وفيما بعد كنت تلتزم بنصائحه. قبل كل شـــيء لا تتعرض لتيار هوائي، تيار الهواء هو أســـوأ من كل شيء، وعدت متمتعا بصحتك مرة أخرى، وقمت بمباشرة أعمالك وتوقفت عن التدخين.

لكن بدا أنك قد تغيرت، وأن الثقة الأساســـية في داخلك قد اهتزت. وضربات القدر قد تركت آثارها عليك، وأصبحت بعض الشيء غير مكترث بالحياة، وعلا كرشك قليلا، وزاد وزنك أيضا، وصرت عنيدا. ماذا حدث لك في ذلك الوقت؟ هل كان ذلك فقط داء تنكّس الأقراص الفقرية؟ كنت تريد حتما طفلا ثانيا! كان عمر الأم حينها يزيد على الأربعين، وكانت قد عانت من حالة إجهاض تلقائي في البداية، وفي المرة الثانية، تم الحمل، ونزل الجنين في شهره السابع. كانت بهجتك تثير المشاعر، أنا مازلت أتذكر ذلك جيدا، ثم أصبحت إعاقته واضحة، واضحة بشكل بارز، حتى إن الصغير لم يمكنه المشـــي أبدا. في ذلـــك الوقت تم التخلص من كل أحواض الســـمك، وتكاثرت الشجيرات في الحديقة ولم تجد من يقطعها، ونما العشب وتفشّـــت الأعشاب الضارة، وتشابكت فـــروع التوت البري بعضها في بعض على الشـــجيرات المتكاثرة، وبدأ طلاء إطار النوافذ في التشـــقق والتقشر. ماذا كان يحدث يا أبي؟ هل كنت قد خسرت المعركة ضد الحياة في ذلك الوقت؟

علـى مقربة منا، وفي كراج، تسـلق حيـوان ابن عرس طويل الذيل إلى مكان محرك سـيارة جيب شـيروكي، وبدأ يشم بأنفه الصغير الرطب الأسـلاك المختلفة المغطاة بالبلاسـتيك، وقام بالتسلق من موزع محرك السيارة إلى الكاربراتير وضغط جسمه ليسقط حيث توجد أسـلاك الفرامل، وبدأ في قرضها والعضّ فيها بحماس. أما صاحب السيارة فكان يجلس في غرفة المعيشة المظلمـة، متأملا من خلال النافذة في مناظر الطبيعة ليلا. كان يسمع ماكينات الحصاد، ويرى كيف أن نور أحد الكشافات يضل طريقه إلى غرفته؛ ويضيء أحد الأباريق المصنوعة من القصدير فوق المدفأة.

وعلى بعد عدد قليل من المنازل، كان ڤالتر وأبوه يسـتطيعان سـماع الضوضاء لو لم يحجب هدير محركات ماكينات الحصاد كل صوت آخر.

وبعد عـدة منازل، كان هناك حفلة عيـد ميلاد، وكان هناك رقص في غرفة المعيشة، وشرب البعض الكثير من الخمر، وكانت النوافـذ مفتوحة على مصاريعها، وتجمعت مجموعة صغيرة من الناس في الشرفة.

أخي العزيز: لم تُمنح لك إمكانية الكذب، ولم يكن في إمكانك مثلي أن تنقذ نفسـك بتصويبات صغيرة، لم يبق لك في صدقك إلا الهجـرة إلـى الداخل. صار كل أفراد الأسـرة مراقبين لك. اسحب سـاقيك، لا تسـتند هكذا إلى الوراء أو العكس: اتركوه وشـأنه، لا تسـمعوا كلام الآخريـن! كل إثارة تلقائيـة كان يتم إبعادهـا عنك. كنا جميعـا نتمنى لك الأفضـل، كنا فقط نريد أن تصيـر طبيعيا بقدر الإمكان. كانت الأصوات العالية تزعجك

بشكل كبير، رغم ذلك صرنا معروفين في المنطقة بأننا العائلة الأعلى صوتا، فكان كلامنا العادي صراخا، لا تتحدث بصوت عال، كانت الأم تقول للأب والأب يقول للأم. مناقشاتنا تتحول بسهولة إلى صراخ، أنا والأب، بينما كنت تجلس على طاولتك متوترا وملتفتا بوجهك بعيدا. أمرٌ غريب أن يكون بهذا الهدوء، رغم أنه ينتمي لنفس الأسرة! فليس لديه نفس المزاج الحاد، ويمكن فعل كل شيء مع مثل هذا الشخص، إنه لا يقاوم على الإطلاق ولا يملك إرادة خاصة به، فهذا أمرٌ غير مفهوم، وليس له علاقة بالإعاقة، كان يقول ڤالتر في نفسه: هل مازلت يا أخي تتذكر الساعات التي كنت تؤدي فيها التمارين في الحديقة؟ ذات مرة قمت برفع كلا العكازين عاليا، وبقيت أنا أعد، كم من الوقت تستطيع حفظ توازنك من دونهما؟ ثم كانت هذه النزهات سيرا على الأقدام على الطرق بين الحقول أكثر من مئة متر أو مئتين؟ أحيانا كنا نشعر بالرضا والصفاء، لكني لم أستطع أن أفهم في ذلك الوقت لماذا رغم كل مجهوداتي، لم تتحسن حالتك سريعا؟! وعندما عدنا إلى البيت، لمست الأم رأسك وصاحت: يا إلهي، إن شعره مبتل، لقد أجهد نفسه كثيرا. ودافعت أنا عن نفسي، وسألتك إذا كان ما فعلناه قد أعجبك أم لا، وماذا كانت إجابتك، قلت نعم بصوت خفيض أو فضلت السكوت، وكان ذلك أفضل حلّ بالنسبة لك!

الأب خاصة لم يفهم، لماذا لم تكن طموحا؟ ماذا يريد في الحقيقة؟ إنه يستطيع أن يفعل أي شيء يريده، لكنه لا يريد أي شيء على الإطلاق، إنه إنسان بلا إرادة. المعاقون بالتحديد يمتلكون دون الآخرين عزيمة صلبة، أما هو فليس لديه طاقة

مطلقا. اســألوا الأطباء، ردت الأم، فسيقولون لكم ماذا يعني أن تكون إنسانا شديد الإعاقة.

وبحرص تم تجفيف مؤخرة رأسك، ومساعدتك في الجلوس على الطاولة، وحصلت على عصير برتقال طازج. كي يمدّ جسده بالفيتامينات الكافية بعد ذلك الإجهاد، قلت في نفسي، ليس لديه فرصة أبدا في مواجهة الأم! والابن الأصغر، الابن المعاق، استمر فــي محاولته الهبوط من فوق الدرج، ووضــع قدما قبل أخرى، كيلا يســقط محاولا الوصول إلى الهدف. يجب أن أكون جاهزا لمســاعدة الأم، إنها في حاجة إلى طبيب، جرّ قدميه المنفرجتين فــوق الأرضية ذات الحجر الرملي مســتندا علــى عصاه وعلى الســور. أمي ينبغي ألا تموت، يجب أن تبقــى على قيد الحياة، وتصبح ســليمة مرة أخرى. في اســتطاعة الطبيب أن ينقذها، ينبغي ألا تصير مشلولة، أو أن تفيق من غيبوبتها على الأقل، فلا يمكن أن تبقى ممددة على ظهرها فوق السرير هكذا. ربما يكون مصيرها بيتا لرعاية المســنين، ولكن أين ســأذهب أنا؟ هنا مرة أخرى درجة ســلم، ســلالم الدرج هذه الملعونة، لأول مرة يصبح غاضبــا حقا، أحس بالعجز، واليــأس، وامتلأت عيناه بالدموع: ســوف يصبح الوقت متأخرا جدا، كل شيء يستغرق زمنا طويلا جدا وأنا لا أحقق أي تقدم على الإطلاق. أدار نفســه مرة أخرى تســعين درجة، ضغط عصاه تحت ذراعه اليســرى، وحاول أولا وضع القدم اليسرى فوق درجة السلم التالية.

شعر بساقيه ترتعشان بقوة من الجهد، بعدها حاول جرّ قدمه اليمنى. انقطعت أنفاسه؛ درجة سلم بعد الأخرى، صار منهكا، لم يعد في وضع يسمح له تقريبا بأن يقوم بأي حركة منظمة، لكنه

أخيرا نجح في النزول، وآخر درجة في السلم، تمكن من التغلب عليها. لكن الآن كان السور قد انتهى، وعليه أن يمشي مترين أو ثلاثة أمتار إلى الأمام، في هذا المكان الذي هو فيه الآن، لا يمكن لسائقي السيارات رؤيته، لو أعطاهم أية إشارة، وكشافات ضوء السيارات لن تكشفه، هنا يبقى في الظلام. ها هي سيارة هناك! المخروط الضوئي لكشاف النور حتى لم يلمسه، لم يتمكن أحد من رؤيته في هذا المكان.

اقترب ڤالتر مع أبيه وهو فوق ظهره، الآن من أحد المزارع، وسمع نباح كلب، عندما خفت صوت ماكينة الحصاد العالي بقرب تل صغير، أسرع خطواته ومشى بعيدا عن المزرعة، وهنا بدأ الأب فجأة في الكلام. تكلم دون انقطاع، تكلم، وتكلم، طرح أسئلة لكنه لم ينتظر الإجابة، كان يوجد في مكان ما، غاص ذهنه في ماضيه، تكلم عن أمه، وعن أبيه، عن المدرسة، تكلم عن زوجته. شتم ولعن وانفجر صارخا على نحو مفاجئ!

قام ڤالتر بشد قدم أبيه، لكن العجوز لم يرد أن يتوقف، قذف بعبارات مشحونة بالكراهية من داخله، وأثناء ذلك بدأ في البصق، وتجمع البصاق فوق رأس الابن. صاح الابن في أبيه: توقف! دعك من ذلك! لا يمكن تحمل ما تفعله. وفجأة تخيل ڤالتر، كما لو كان لا يحمل الأب فوق كتفيه، كما لو كان يراه أمامه مباشرة، قريبا للغاية، كما لو كان ينظر في عينيه الحمراوين كالدم، كما في الماضي عندما كان طفلا، وكان يخاف منه، هذا الأب الذي كان يقرر كل شيء! كان يريد أن يصرخ في أبيه، لكن عروق حنجرته ضاقت، ولم يخرج منها أي صوت. وفي ذروة انفعاله قبض على أذني الأب، فتهشمت غضاريف الأذن

وكأنها من جوز الهند، وأمسك بخدّي الأب، فانفصل الخدان من العظم، وسقط لحم الخدود من الجمجمة. أبي! صرخ فجأة، وأفاق من الخيال!

واستمر الأب في صراخه وهديره فوق ظهر الابن، ولم يخضع لرغبات الابن في إسكاته. وفكر ڤالتر في أن ينزله من فوق ظهره، مثل حقيبة ظهر أثناء فترة استراحة. فكر في إنزاله على الأرض، وأن يسدّ فمه بحفنة من أوراق الشجر، وأن يجبر العجوز على الصمت بوضع قبضة من طحالب مستنقعات الغابة في فمه. توقف أخيرا عن الكلام أرجوك! جرى ڤالتر وهو غاضب فوق حقل قمح مقصوص، وسال العرق متدفقا عبر جسده، كان يتنفس مثل عدّاء ماراثون اقترب من الهدف. لكن لم يعد بالإمكان تهدئة الأب، كانت الكلمات تسقط من فمه من غير قيد، انطلقت من زنازين روحه، كأن هناك عفوا عاما حدث داخل أعماق العجوز، وخرج الكل في ذات الوقت، من مختلف الحقب الزمنية، الكل أراد أن يخرج الآن!

صاح ڤالتر، إنك تجعلني أجنّ، وسوف أسدّ فمك الآن. أثناء الركض، حاول وضع يده على فم الأب وعلى بطن يده، أحس بالشفاه المبللة، وبذقنه الملطخة باللعاب، والآن تكلم الأب من الرأس، من الأطراف، من عظام الفك، من الرقبة، من أسفل الظهر. تكلم عن الحرب العالمية الثانية، عن توزيع التموين، عن قاعات المحاضرات الكبيرة في الجامعة، وعلى نحو مفاجئ تكلم بالفرنسية بطلاقة، ثم سكت بعدها. استند ڤالتر منهكا على حزمة قش مغلفة بالبلاستيك، وقام بمسح عرقه من فوق جبينه، وحاول استرداد أنفاسه مرة ثانية. أيضا الأب كان منهارا بعد

هـــذا الانفجـــار البركاني، فقد ارتخت رأســـه متدليا على كتفي الابن، وكأنه ميت. لكن الابن كان يســـمع أنفاســـه بشكل متقطع ويحـــس بدفئها في رقبتـــه. وفي الأفق، في نهايـــة الحقل كانت تســـطع أنوار كشـــافات الضوء لإحدى ماكينات الحصاد، ولمس الضوء وجه ڤالتر.

للحظة لم يعد يرى شـــيئا، كانت هناك نقاط بيضاء تتراقص أمام عينيه. وتدريجيا اســـتطاع أن يجد طريقه مرة أخرى، تذكر ڤالتر أولى ماكينات حصاد رآها وهو صبي، كانت صغيرة الحجم وليســـت بهذا الكمال مثل اليـــوم، كان القش يُقذف إلى الخلف، ويتم تجميع حـــزم القش في وقت لاحق. اليوم يتم ضغط وكبس القش إلى حزم كبيرة وتقوم الماكينة بتعبئتها في البلاســـتيك في نفس الوقت. ليس هناك مكان آخر به مثل هذه الحزم من القش على هيئة رجال. رجال القـــش المكونة والمصفوفة خلف بعضها، هـــذه الحزم تُحدث طقطقـــة عندما ينزل المطـــر صيفا، فتقوم الشـــمس بتســـخين القش، والذي يتحول لونه إلى البني. عندما كنا نلعـــب ونحن أطفال على هذه الحقول المحصودة حديثا، كان الماء يتدفق من ســـيقان النبات المقصوص فوق سيقاننا العارية، وعندما كنا نلعب الاســـتخفاء، كان يصيبنا القرف ونحن ننحني خلف حزم القش المليئة بالبخار كريهة الرائحة.

كان الذباب يحوم حول ســـيقان القش محدثا أزيزا، وبخاصة الذبابـــات الزرقاء الضخمة ذات المؤخرة الملونة المتألقة. وعندما كانت حزمـــة القش تُرفع بعض الشـــيء، كانـــت مجموعات من النمل والخنافس وقمّل الخشـــب والديدان تمـــرح تحتها. وعلى مسافة عدة كيلومترات إلى الأسفل من هنا، ناحية البحيرة، كان

الابن الأصغر، المعاق، يحس بالألم في ساقيه المتشنجتين، ولا يستطيع ثني ركبتيه، حاول بكل ما لديه من قوة أن يمنع نفسه من السقوط، ويحافظ على استقامة ساقيه، كما كانوا يعلمونه في آلاف الجلسات من العلاج الطبيعي، لقد بذل كل الجهد.

وتذكر العملية الجراحية التي كان هدفها تطويل عضلات الساق في ذلك الحين، عندما كان عمره خمس سنوات، إنها فرصة، قال طبيب العظام، ربما يمكنه المشي بعدها، من يدري، ولاح أملٌ في الأفق، ربما يستطيع أن يعيش حياة عادية. لقد رقد أسبوعين كاملين على سرير نقال مصنوع من الصلب ومطلي باللون الأبيض، وكلتا ساقيه في الجبس، ولم يتمكن من الحركة على الإطلاق، فالحركة كانت ستقلل من فرص نجاح العملية. كانت لديه كل حيواناته المفضلة من القطيفة وغيرها، ولعب السيارات، والتي كان يلعب بها فوق لوح خشبي صغير، وفي المساء كان لا يريد أن تعود أمه إلى المنزل وتتركه وحيدا في المستشفى.

ذات مرة قام بالتبول في البنطال من الانفعال، وبلل الجبس أعلى فخذيه، وامتص الشاش الخارجي البول، واغتاظت الممرضات. في عمرك هذا! والآن تفوح رائحة البول الكريهة منك طول الوقت. نحن لا نستطيع أن نضع له جبسا جديدا، يجب عدم تحريك السيقان، فالعملية الجراحية لن تكلل بالنجاح، وربما يصير الوضع إلى الأسوأ، ولا يستطيع بعد ذلك تحريك ساقيه على الإطلاق.

بكى أخي عندما سمع ذلك، وتشبث بأكمام الأم، لم يتوقف عن الصراخ، ولم يدع الأم تغادر المكان، في ذلك الوقت كان

غير مسموح بأن يبيت أحد المرافقين مع الطفل في المستشفى، هناك مواعيد محددة فقط للزيارة. لكن الأم قامت بتقديم رشوة لكبير الأطباء، وللممرضات، حتى تتمكن على الأقل خلال النهار من زيارة ابنها. غير أنه دائما وفي المساء وبعد وجبة العشاء، كانت تأتي لحظة الفراق، وكانت الأصابع الصغيرة تحيط بيدي الأم، ويتم فكها بالقوة، ويظل الصغير يئن ويبكي حتى ينام. بعد ذلك صارت ساقاه أكثر نحافة، وكانتا تشبهان ملعقتين خشبيتين بارزتين من بنطاله القصير. لكن لم يتم الاستسلام لليأس، ربما يمكنه الآن تعلم المشي، لقد تمّ عمل الكثير من التمارين معه، وفق الطرق الحديثة، والتي تعلمها اختصاصي العلاج الطبيعي في الولايات المتحدة الأمريكية، وبخاصة لمرض الشلل الدماغي عند الأطفال، حيث كان تتم دحرجته فوق كرات كبيرة، وتمتد ساقاه خلال ذلك، وتنثني وتنفرج. كان يتم عمل كل ما من شأنه تحفيز القدرة على الحركة لديه، بكل الوسائل. وفي البيت كانت الأم تمارس معه التمارين بصبر كبير: خلايا مخ أخرى تقوم بوظائف الخلايا التي بها خلل. في الصباح، وفي منتصف النهار وفي المساء كانوا يضعونه فوق سجادة من المطاط ذات حواف بلاستيكية خضراء. كل شيء كان يتم تعليمه للأطفال الآخرين بسهولة، أما بالنسبة له فقد كان الأمر صعبا، حتى الزحف العادي على أربع كان يتطلب بالنسبة له برنامجا تدريبيا على درجة عالية من الصعوبة. وبعد كل هذا، كان النجاح الذي أحرزه، يتمثل في تحريك ساقه اليسرى بعض الشيء إلى الأمام. انظروا، يا له من نجاح، كل شيء سيصبح على ما يرام، فقط اتركوا له بعض الوقت، كانت الأم تقول. وتتذكر الأخ، كيف

تعلم الأخ أن يمشـــي مُقادا بعصا، كيف نجح رغم تشنج عضلاته في أن يضع قدما بعد أخرى، وبهزة معينة أن يدفع نفســـه عدة سنتيمترات إلى الأمام!

لم يكن مشـــيا جميلا، ولكنه على أي حـــال تقدم إلى الأمام. سوف تتحسن حالته، قالت الأم، سوف ترون في غضون سنوات قليلة سيسبقكم في الركض، وظل يؤدي التمارين، وبمرور الزمن لـــم يعد في حاجـــة إلى أن يحملوه من الســـيارة إلى المدرســـة، وتمكنوا من أن يقودوه إلى غرفته. أبدا لم يسخر منه أحد، كانت المدرســـة كلها تعرفه، وفيما بعد في المدرسة الثانوية، وبعد ذلك في الجامعة، لم يبق أبدا شـــخصا مجهولا، الكل كان يعرفه، كان يتذكر كل ذلك الآن، عندما حاول مرة أخرى أن يســـترد أنفاسه. مرة أخرى صاح مســـتنجدا، لا شـــيء، ثم تهادى إلى سمعه في ظل هذا الســـكون، صوت يشبه الأنين، لقد تخيل أن أحدا يناديه باسمه. صاح صارخا: أماه! يا أمي. مرة أخرى، لا شيء.

لم يعد يســـتطيع حفظ توازنـــه، بركبتين مضغوطتين معا كان جســـده ينقبض، قبل أن ينحني، دار حول نفسه، حاول أن يستند علـــى عصاه، لكنه ســـقط على ظهره ووقع بمؤخرة رأســـه فوق الإسفلت. قبض على العصا في توتر متشبثا وكأنه يريد كسرها، كان عليه أن ينهض، كان عليه أن يســـاعد الأم، فرفع رأسه رغم الآلام، فقط لو يســـتطيع ثني ساقيه، لكنها برزت منتصبة بزاوية عشـــرين درجة في الهواء، كان شـــكله يبـــدو وكأنه ميزان قباني يترنح هنا وهناك. كانت هذه الإمكانية الوحيدة؛ أن يلف نفســـه بهزة شـــديدة إلـــى الجانب، لكنه بدأ يلهث من الإجهاد، وســـمع صفير أنفاسه، ارتعشـــت عضلاته، واهتز كل جسده، لكنه نجح

في أن يدير نفسه، وبعدها قام بحركة سريعة، واستطاع أن يصل لوضع الرقود على البطن، والآن ربما يتمكن من الزحف على أربع، ودفع نفسه للأمام إلى مقدمة الكراج، حتى يستطيع سائقو السيارات رؤيته.

استند على ذراعيه دافعا نفسه إلى الأعلى محاولا شد ركبتيه ناحية جسمه، في الماضي كان في إمكانه فعل ذلك بشكل أسهل، لكنه الآن لم يعد يتمرن كثيرا، فقد كان يتحرك معظم الوقت في كرسيه المتحرك.

أخي العزيز: إنك لم تغضب أبدا، ولم أرك باكيا مذ كنت رضيعا، لم تبك حتى عندما ماتت جدتك! ماذا تفعل في الحقيقة مع مشاعرك؟ في المستقبل أيضا لم تكن تخاف من الأخطار الحقيقية، فقط الأخطار التي يمكن حدوثها كانت تجعلك تحس بالرعب والفزع. اليوم أصبح الواقع، خارج مكانك الذي يضيق دائما، كابوسا يهددك، حياتك اليومية صارت رعبا، أين بقيت في الحقيقة؟ كيف كان بإمكانك كإنسان أن تنقذ نفسك خلال أعوامك الاثنين والعشرين؟ كيف كان يبدو منفاك الاختياري؟ كيف استطعت أن تحافظ على ذاتك وتبقى كما أنت؟

لكنك، حكيت لي مرة على الهاتف، أن مخاوفك كبيرة، وأنها تهدد بابتلاعك في بعض الأحيان، وكنت تعتذر لي لأنك تظن أنك تزعجني، وتضع بعدها النظارة الداكنة فوق عينيك، كانت العائلة كلها تعاملك دائما بعطف وحنان، ولم يشأ أحد أن يضايقك أو يزعجك، كنا نبعد عنك كل الأشياء السيئة، فهو لديه ما يكفيه ويتحمله في هذه الحياة، كانت الأم تقول. وكنت تحس بكل صور

الشفقة المختلفة، هذه الشـفقة جعلتك تشعر طول الوقت بأنك صغير، لم تمثل خطرا على أي شخص!

إنـه ليس فقط طبيعيا للغاية، لكنه فوق ذلك يمتلك ذكاء فوق المتوسـط، هذا ما قاله الطبيب بعـد اختبار الذكاء، عندما كنت فـي الثالثة من عمرك، يا له من إحسـاس بالراحة، الآن نمتلك شـيئا مكتوبا، وامتلأت عينـا الأب بالدموع، ربما كان مازال في الإمكان إنقاذ الأسـرة من الانهيار. صدقوني، فالصغير سـوف يجد طريقه، وسـوف تندهشـون، كانت الأم تقول. أيضا مشكلة المشـي عنده، سوف تُحل، آجلا أم عاجلا. لقد أنقذت يومنا من الشـجار يا أخي العزيز في ذلـك الوقت، ونجحت لأول مرة في الاختبار. ربما كان الأب سـيحبك أيضا لو كنت متوسط الذكاء، فأنـت في النهايـة، ابنه، لحمه ودمه، لكن الذكاء يبقى مسـألة كرامة إنسانية، والأم ربما كانت ستحبك أكثر، حتى لو كنت غبيا بعض الشيء، فسوف تكون في احتياج لها أكثر. أنا لا أدري ماذا كنت سـأفعل لو كان أخي، ليس فقط جسديا معاقا، ولكن ذهنيا كذلك؟ ماذا كنت سـأفعل في ذلك الوقت، وكنت في الخامسـة عشرة من العمر؟ لقد تم إثبات أنه طبيعي.

كنـا نتوقع منـك أن تقوم بتأدية نشـاطاتك اليومية بشـكل مسـتقل، وذلك عندما تصبح سـلبيتك مصدر شـكوى وإزعاج لنا، حينها فقط كنا ننادي فجأة مطالبين بأن تؤدي بنفسـك كل شـيء يخصك. من فضلك؛ عليك أن تفعل شيئا، عليك أن تبذل بعـض الجهد، لقد كانت نوايانا حسـنة تجاهـك طوال الوقت، لأنك وحدك لم يكن في اسـتطاعتك أبدا فعل ذلك بهذا الشكل الطيب. إنه مـن المريح جدا أن يكون لديك أخ أو ابن يعتمد كليا

على مساعدة شخص أقوى وأكثر قدرة منه، عندما تجلس اليوم أمامي في الكرسـي المتحرك فأنا أستطيع إدراك نقاط ضعفك، لكن هل أتقبـل أنا أيضا نقاط قوتك؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لـو كانت لك طلبات خاصة، مـاذا كان يمكن أن يكون رد فعلي؟ لكنه لا يستطيع ذلك أبدا، إنها فقط مجرد خيالات في ذهني.

مازال ڤالتر مسـتندا على حزمة القش المغطاة بالبلاستيك، كانت ومضات البرق قد زادت قوة، هل تستطيع يا أبي أن تتوقف عن إلقاء خطبك؟ حاول الاسـتمتاع بالليلة الصيفية الجميلة. ما كل هذا الكلام؟ هذه الثرثرة؟ أنا لا أقول ذلك مسرورا، شيء غير وقـور. هل مازلت بعد كل هذا، ذلك الإنسـان الذي أعرفه؟ هل مازلت أبي بأية حال؟ توقف أخيرا عن هذا الهذيان والكلام غير المفهوم! الآن هو الوقت المناسـب لحوار جاد بين الأب وابنه، وإلا فمتى سندير مثل هذا الحوار؟ لديك فرصة للكلام قبل أن نصل إلى أعلى الجبل، إنك تسـتطيع إيضاح بعض الأمور لي، وتبلغني ماذا بقي لك مهما، وما السقطات التي ارتكبتها في حياتك، ذات يوم سـيأتي اليـوم الذي تودع فيه الحياة، لـن يمكنك حينها أن تقول «إلى اللقاء» أو «تشـاو»، ذات يوم سيصير الأمر نهائيا ومن دون رجعة، وسيؤخذ الأمر على محمل الجد.

سـوف تكون سـعيدا يا أبي بالمنظر الطبيعي مـن فوق التل إلى أسـفل الوادي، وعندما تشرق الشـمس، سوف يمكنك عبر المروج والحقـول وعبر التلال المكسـوة خفيفـا بالغابات، رؤية مكانك المحبوب زيورخر أوبرلاند، وسـوف ترى جبال الألب من سـينتيس عبر الجلارنر حتى برنرالبين، المنظر الطبيعي بأكمله، وبعد العاصفة الرعدية وفي شمس الصباح، ستبدو الطبيعة في

أزهى صورها بعد أن قامت قدرة الخالق بغسلها. لن تكون هناك ذرة تراب فوق أوراق الشجر، كل شيء سيكون نظيفا، وريش الطيور سيلمع في ضوء الشمس، كل شيء وكأنه جديد. وأنت سوف تجلس في الشرفة، وستكون محميا من الشمس، وأيضا من هطول المطر المفاجئ، ستسمع فقط صوت طقطقة فوق السطح، وربما بين الفينة والفينة تنفجر قطرة ماء طائشة فوق رأسك الأصلع.

سوف أجعل المكان مريحا بالنسبة لك، سيكون الماء في متناول يدك، سوف أعد لك زجاجة الترموس، وأجعل غطائها سهل الفتح حتى يمكنك فتحها عند الحاجة دون جهد، وستطوف الصور المنطبعة بذهنك في ذاكرتك، وسيلتحم الماضي بالحاضر، الأمس واليوم، ستنظر إلى الأحداث كما من خلال كاليدوسكوب، ومن حين لآخر سوف تضع زجاجة الترموس على فمك، وسوف تبلل شفتيك بعض الشيء، إنك لن تشرب الكثير من الماء، وسوف يصيبك الجفاف تدريجيا وتصبح مجدبا، وفجأة تسقط أبكمَ على الجانب، في هذه الحالة سيكون الشأن شأنك، هل سينظر كلٌ منا في عينَي الآخر مرة أخيرة عند الوداع؟ طويلا سينظر كل منا في عيني الآخر.

هل ستدرك على الإطلاق أنني هنا؟ أم سوف أغادر في صمت؟ وببطء أبدأ في الهبوط من الجبل؟ هل ستمتلئ عيناي بالدموع؟ وهل ستلوذ بالصمت؟ أم أنك سوف تهذي؟ ماذا يمكن أن يحدث لو قمت بالصراخ، بكل قوة، بشكل خارق، مثل حيوان جريح؟ هل ستدمع عيناك؟ هل سأقدر البتة أن أنفصل عنك؟ من المحتمل أن أبقى برهة بجانبك، ربما عدة ساعات، ربما يوما كاملا، من

يدري ماذا سيخطر ببالي في تلك اللحظة، وهل سيكون فيها كل شـــيء وبالكاد تحت سيطرتي، أليس كذلك يا أبي؟ سوف ننتظر ســـويا، بعدها سوف تأتي اللحظة التي ســـوف أقف فيها وأقوم بتوديعك، ســـوف تأتى اللحظة التي ســـأمد يدي لك فيها للمرة الأخيرة، وربمـــا أحضنك مرة أخرى، أحضن جســـدك النحيل، وربما أقـــوم بطبع قبلة على جبينك، ولن تخـــرج مني كلمة، لأن صوتي سوف يخذلني، لقد كنت دائما أخشى ذلك. ربما قلت إنه ينبغي أن أتماســـك، لكني لا أستطيع أن أقبض على أسناني وأن أفتح فمي في نفس الوقت وأقول شـــيئا ملائما، أم أنه كان علي أن أرحل بعيدا صامتا وبكل بساطة؟ ربما تكون في تلك اللحظة ساقطا على جنبك.

وعندمـــا ألتفت إلى مكانك بعد هبوطي من الجبل عدة مئات مـــن الأمتـــار، هل يجب أن أعـــود إليك مرة أخـــرى؟ بين الفينة والفينة ســـوف تطيـــر طائرة فوقك تاركة آثـــار دخانها الأبيض، وأسراب البعوض سوف ترقص حولك، والذباب سوف يطن فوق رأســـك، وسيسقط على جسدك وسوف يدغدغك، وسوف تقوم بإخافتـــه بحركـــة لا إرادية، وفي وقت ما ســـتصبح غير مكترث بها، ستزحف فوق شـــفتيك وجفنيك، ربما تغمز بعد بعينيك، أو ربما تتحملها وأنت ســـاكن بلا حركـــة، عندما تحكّ بخراطيمها فـــوق مقلتيك. علّـــي أن أثبت لك الخدمة الأخيـــرة؟ ماذا تتوقع فـــي الحقيقة مني؟ ماذا تتخيل في الواقع أن أقوم به؟ هل يجب أن أخنقك؟ أم أقتلـــك؟ أم تريد مني أن أحضر حجرا ثقيلا في يدي، وأرجع بيدي إلى الوراء، بعيدا إلى الوراء، ثم أرميه بكل قوة فوق رأسك العجوز، حتى تتحطم عظام رأسك؟ هل سيكون ذلك

مناسبا لذوقك؟ هل سيكون ذلك عملا رجوليا؟ واجب الابن؟ لا تغادر؟ وانظر في العيون؟ هل كنت تعني ذلك؟

هل أبدأ الآن في فهمك؟ أم يجب أن أدفعك إلى الأسفل عبر الحائط الصخري وأسمع كيف سوف يسقط جسدك تحت، فوق الأعشاب المقصوصة؟ هل عندها سيتم تسليم العصا كما في مسابقات العدو، من الأب إلى الابن، من رجل إلى رجل؟ أنا أخشى يا أبي أن أصبح في يوم من الأيام وحيدا، كما أنت الآن، أخشى أن أستيقظ ذات صباح ولا أجد إلا الوحدة تلفني مثل صقيع. هل سأسافر حاملا كيس البلاستيك، يطاردني هذا القلق الغريب في أعماقي؟ هل سأقوم أيضا بتأدية تمارين الضغط، قويا وصارما، كي أثبت لنفسي أن كل شيء لا يزال على ما يرام؟ وهل سأقوم أيضا برفع نفسي عاليا متأوها، حتى تقفز أوتاري من مفاصلي، وحتى تتمزق عضلاتي؟

قام ڤالتر بدفع نفسه بعيدا عن حزمة القش، وحمل الأب ثانية إلى الوضع الصحيح، إنه يشعر الآن بحزام حقيبة الظهر على كتفيه، لكنه كان متنبها لهذا الأمر، فقد كانت معه المناديل الورقية التي قام بطيّها وحشرها تحت حزام الجلد. صار صوت ماكينات الحصاد ضعيفا مع مرور الوقت، ولم يعد هناك إلا أصوات الليل، هذا لم يكن فقط وميض البرق، لقد بدأت العاصفة الرعدية بالفعل فوق بحيرة الأوبرزيه، والآن يمكن سماع صوت رعد بعيد. نعم يا أبي، أنا أخشى من الوحدة، أخشى هذا القلق الذي كدّر حياتك، وخطرت مارا على ذهن ڤالتر، والمناقشات التي تمت صباحا، عندما يبلغ المرء سنّ الخمسين، لا يستطيع أن يُنهي علاقة هكذا بسهولة ويبدأ علاقة جديدة دون تفكير.

على نحــو مفاجئ يصعد الخــوف في داخل الإنســان، كما البرودة في غرفة ليست دافئة، تبدأ البرودة عند الأقدام، وتتسلق عاليا لأسفل الســاقين حتى الركبتين، وسرعان ما تلف الجسد كله سحابة ضبابية من الثلج الجاف. مرارا وتكرارا ما أعود إلى نفس النقطــة في علاقاتي. في الماضي كنــت ألقي باللوم على النساء عند فشلي معهن، يجب أن ننفصل، انصرفي، كنت أصيح كل مرة وبجرأة وفي غمرة حزني اليائس، ذات يوم ســأعثر على المرأة المناسبة، أقول في نفسي. وبالفعل مرارا كانت هناك علاقة جديدة تبقى لبعض الوقت، ثم يتبين أنها المرأة غير المناسبة، لكن اليوم أصبحت أنا الشخص غير المناسب، صرت متشككا، ولكني أريــد أن تعود العلاقة من جديــد، ولكن ماذا أفعل لو كانت مارا لا تريــد؟ هل تعتقد أن هناك مخرجا يا أبي؟ عندما كنت طفلا، كنــت في بعض الأحيان أفكر أن هناك شــيئا ليس صحيحا في شخصيتي، كنت أعتقد أن هناك شيئا ينقصني كي أصبح إنسانا كامــلا. يبدو أنه كان يجب عليــك أن تجعلني مادة لتجاربك في القبو، ربما لهواياتك الحرفية والفنية.

وبعد ذلك عندما جاء أخي الصغير إلى العالم بإعاقته، تحول ظني إلى يقين. تجاربك في النســل ضلت السبيل، تبين لي فيما بعد أنك بريء ولست مسؤولا عن إعاقة أخي، فنحن نولد والخلل في داخلنا. لم تنفصل أبدا عن أمي بشــكل نهائي، فشــجاركما وصراعكما، كان بمثابة ضرورة حياتية لكل منكما. منذ شبابكما المبكــر، كنتما متداخلين ملتحمين حتى أيامكما الأخيرة أنهك كل منكمــا الآخر، ولم تنفصــلا، كان كل منكما مرتبطا بالآخر. هل كان الحنان مســتترا في الشجار بينكما؟ هل كان حبكما مخفيا

في الإهانات؟ وشــهواتكما أسيرة الكراهية؟ ماذا أفعل حقا الآن لو لم تعد مارا إليّ؟ فالوحدة مع تقدم العمر تصبح أمرا لا يمكن تغييره، من دون شــريكة حياة أشــعر بالضيــاع، فأنا في حاجة دائمة إلى الحب، ومن دونه لا أستطيع الحياة.

ارجعــي إليّ يا مارا، يجب أن نحاول العيش ســويا مرة أخرى، ڤالتر كان ســعيدا، لأنه اســتطاع أن يمضي، فقد كان يخشــى أن يصاب بالجنون مع كل هذه الصور التي تطارده، لقد غادر كما الأب في الماضي، ربما بدأ الآن في أن يحل محله، ربما كانت هذه بداية حقبة جديدة في حياته، ربما يخرج للسير يوميا عدة كيلومترات في الحيّ، حتى يمكنــه التغلب على الخيالات التي تلاحقه، والمصاعب والأزمات اليومية والواقع بكل تفاصيله ومشــكلاته، سيخرج للسير في الشــوارع، مثل مجنون كي يستريح من قلقه ويصبح سيد نفسه، وإن لم يكن كل ذلك كافيا، فماذا سيفعل إذن؟

ارجعــي إليّ يا مارا! وإلا فســأصعد التــرام ذات يوم، وأظل أصرخ وأصــرخ، وأشــتم البنوك، وبابــا الفاتيــكان والأحزاب السياســية، وأشــعر أن كائنات من الفضاء تطاردني. هل تسمع صوت الجداجد يا أبي؟ إنها تزقزق وتغرد بقوة كما في الجنوب، أود يا أبي أن تعلّمني الحياة مرة أخرى، أريد أن تجعلني مستعدا لنهايــة اللعبة، أن ترينــي كيف يبدو الأمر عندمــا تخمد طاقة الحيــاة، عندما لا يســتطيع المرء فجأة توجيــه البوصلة ناحية المســتقبل، عندما لا يمتد الأفق عند السير، بل يتوقف فورا مع رعشة وإلى الأبد.

وصل ڤالتــر إلى تلّ صغير، وبدأ يتبع في ســيره ســياجا كهربائيــا، ترقد خلفه بقرات تجترّ ويبدو شــكلها وكأنها أكوام

ترابية. هل كنت مستاء يا أبي لهذا السبب؟ ويبدو وجهك عابسا؟ هذه الآلام والهموم لا يمكن التعبير عنها للأسف، حتى لأقرب الأصدقاء، يمكنك التلميح فحسب. في اللحظة التي تخرج هذه الأفكار من أعماقك، تفقد معناها وتصير تافهة. انظر إلى أسفل التل، إلى البيوت، والقرى، والمناطق السكنية، معظم الناس تنام الآن!

المتزوجون يرقدون جنبا إلى جنب ويتنفسون بعمق، والأطفال نصف مغطاة لسخونة الجو، ينامون حاضنين دمى الدببة، وكبار السن يتقلبون في فراشهم بقلق، والكلاب تتمدد فوق البلاط الحجري البارد، والقطط تمكث في الحقول المقصوصة حديثا أمام حفر الفئران في انتظار الغنيمة. إلى الأمام يا أبي، علينا أن نسرع الخطى، فهناك رياح خفيفة تهب الآن، وصوت الرعد يصبح دائما أعلى، هطول المطر بات قريبا يا أبي. ماذا يحدث ذات يوم عندما لا يستطيع الرجل أداء واجباته؟ كيف يكون الوضع عندئذ؟ عندما يصبح الرجل عاجزا فجأة؟ متى تبدأ هذه المرحلة يا أبي؟ في عمر السبعين؟ أم في الثمانين؟ أو ربما بعد ذلك؟ عندها يصبح الرجل أسيرا لذاته.

نعم، عن الأشياء الصغيرة اليومية، لا يريد أحد أن يتكلم، رغم أنها أحيانا تجعل الإنسان تعيسا أو سعيدا. كيف تريد أن تخبر أحدا، إنك الآن ترى وتدرك الطبيعة بعيون أخرى؟ فعندما تنظر إلى الطبيعة الآن، يعتريك التوتر وتجتر الذكريات، أهذا هو الأسى والحنين؟ الآن أستطيع أن أفهمك فجأة يا أبي بشكل أفضل ومكانك المحبوب زيورخر أوبرلاند، معظم الناس خلدت إلى الراحة في البيوت، لقد ناموا رغم سخونة الجو!

في مستشفى الحي زارت ممرضة في مناوبة الليل، مريضا تم إجراء عملية جراحية له للتو، سألته عن حاله، وراجعت نبضه. وقائد سيارة مخمور لمس بسيارته المسرعة وهو في طريق العودة إلى البيت، جانب الجسر وفقد أثناء ذلك غطاء إطار السيارة وواقيه، حيث قفز فوق الإسفلت محدثا ضجيجا، لكنه استمر في قيادة السيارة وأضاء كشافات النور. أما الابن الأصغر المعاق فهو مازال راقدا أمام الكراج، وقد حاول دفع نفسه زاحفا على أربع إلى الأمام قليلا، دائما ما تمر سيارة، لكن لأن أحدا لم يلحظه، قرر أن يزحف قريبا في نطاق ضوء كشافات السيارات المارة. في بعض السيارات، كان لا يوجد غير قائديها فقط، في طريقهم من المطار إلى منازلهم، وقد قاموا بتخفيف أربطة العنق، وكانوا يسمعون تقرير الطقس وأخبار البورصة، آخرون كانوا مخمورين بعض الشيء، وكانوا في طريق عودتهم من جلسة أنس لعبوا فيها الورق وهم يصفرون ويدندنون أغنية معا، ومتزوجون في ثياب السهرة الأنيقة عادوا إلى بيوتهم، ربما كانوا في حفلة موسيقية في الهواء الطلق، أو ربما في حفل في ليلة صيفية، وآخرون يجلسون كالخرس جنبا إلى جنب، فقد تشاجروا في طريق عودتهم، وكانوا يخشون من الدخول إلى البيت معا، ومن وقوفهما الصامت سويا في غرفة الاستحمام.

الأخ الصغير كان قد تعلم عندما كان طفلا، أن يبقى على ركبتيه في زاوية قائمة لعدة دقائق، كان هذا تمرينا مهما في العلاج الطبيعي الذي كان يتلقاه، ومن حين لآخر كانت ساقاه تتمددان من تلقاء نفسهما، وكانت الأم أو المعالج الطبيعي يقومان بثني الساق مرة أخرى، كان الوضع يتحسن دائما، وبمرور الوقت

نجح في دفع ركبة واحدة قليلا إلى الأمام، دون أن تمتد الأخرى في نفس الوقت لا إراديا مرة أخرى. وهو الآن يحاول ذلك أيضا، لكنه لم يعد تمرينا، كان الإسفلت خشنا، والاحتكاك قويا، لم يستطع التقدم إلى الأمام، حاول رفع ركبته بعض الشيء، على الأقل المسافة القصيرة إلى السور للوراء، يجب أن يتغلب على نفسه لإنجازها، ومرة أخرى مرت سيارة مسرعة، هذه المرة صرخ بكل ما أوتي من قوة: مرة أخرى لا شيء.

قبض على الأعمدة المثبت فيها السور، وحاول النهوض على ركبتيه، جذب نفسه عاليا، واستطاع الوقوف على أطراف قدميه، بدأت ساقاه في الارتعاش ثانية، لكنه نجح في السيطرة على عضلاته، استند بيد على السور، وبالأخرى قبض على عصاه وبدأ يبحث بها عن فرع شجرة قوي، عثر على واحد وقبض عليه، تلّمس بالعصا بحثا عن فرع آخر، الغصون الصغيرة كانت تبرز في وجهه، كان يحس بأوراقها الطرية، كانت تدغدغه. شعر بالجرأة، ومد يده سريعا، لكن الغصن التالي كان ضعيفا، وأصبح في حالة يمكن أن يفقد فيها توازنه، وأن يدور حول نفسه، بكل قوة ضغط بالعصا على الأرض، لكن العصا انزلقت إلى الجانب، وكانت آثار المطاط ظاهرة على الإسفلت، ومدّ يده إلى جذع الشجرة من نوع الشرد الأوروبي، وفي أثناء ذلك خدشت فروعها الصغيرة وجهه، لكنه تمكن من الاستناد، واستطاع أن يشد عصاه ثانية، سيارات مسرعة كانت تمر طوال الوقت، أحد سائقي السيارات كان يحاول ضبط إحدى محطات مذياع السيارة، فظل للحظة غير منتبه عند المنحنى، ثم اندفع بالسيارة بشدة حتى أوشكت أن تنقلب أمام الكراج، ومرت سيارة

أخرى، يجب أن ينتبه أي شخص لوجوده، ما الذي ينبغي علي أن أفعله؟ أنا لا أستطيع أن ألقي بنفسي في الشارع، وأدع السيارات تدهسني. انظروا تجاهي أخيرا أيها المغفلون؛ صرخ في يأس؛ ألا ترونـي؟ أين تحملقون؟!.. لو أنه استطاع أن يتقدم مترا أو مترين إلى الأمام، لأصبح في نطاق ضوء كشافات السيارات ولتمكن سائقوها من رؤيته!

متنقلا من جذع شجرة صغير إلى آخر أخذ يتحرك ناحية الشارع، وعندما رأى ضوء كشافات السيارات القادمة من بعيد، أصبح على أهبة الاستعداد، وبحرص أدار نفسه في الوضع الصحيح، قبض بيده اليمنى على جذع شجرة الشرد الأوروبي بقوة، وبدأ يلوح بعصاه عندما ظهرت سيارة عند المنحنى، مرة أخرى لا شيء، وبسبب الحركات العنيفة لذراعه اليسرى، صار الآن مرة ثانية في وضع ربما يفقد فيه توازنه، لكنه في اللحظة الأخيرة استطاع أن يقبض بكلتا يديه على جذع شجرة صغيرة، لاهثا وبركبتين مرتعشتين مضمومتين معا، أراد أن يستريح برهة قصيرة، بعدها انحنى ببطء، كي يمسك ثانية بالعصا التي كانت قد انزلقت منه.

أحس ڤالتر بالألم في ظهره، وبدأ يشعر بثقل وزن أبيه، لكنه أصبح سعيدا لأنه وصل إلى أرض مستوية، فعلى الطريق الضيق بين الحقول، استطاع أن يمشي بسهولة أكثر، وكان يسمع من بعيد ضوضاء ماكينة حصاد، وبدأ الأب في اللعن مرة أخرى، كان يتكلم دون انقطاع عن زوجته، تلك المرأة التي دمرت حياته كلها. توقف عن هذا الهراء، صرخ ڤالتر، أنا لا يمكنني تحمل ذلك، عندها أصبح الأب قلقا وبدأ في التململ وهز رجليه بقوة،

وفجأة ظهرت ماكينة حصاد بعيدا، حيث بدأ الحقل في الانحدار قليلا، كانت وكأنها مروحية هجومية بدت وعلى نحو غير متوقع في الأفق، كشافات النور كانت تضيء وجهيهما، والماكينة العملاقة اتجهت نحوهما، توقف عن الكلام! صرخ ڤالتر أثناء الضوضاء في أبيه؛ أنت تجعلني أفقد توازني! أخذت ماكينة الحصاد طريقها نحوهما بضجيجها العالي، وبدا وكأن السائق لم يلحظهما.

تبدو الأحداث وكأنها في فيلم «الشمال الغربي» من إخراج هيتشكوك، قال ڤالتر في نفسه، كانت طائرة صغيرة تطارد كاري جرانت فوق حقل واسع، في اللحظة الأخيرة استطاع ڤالتر أن يقفز إلى الجانب في حقل الذرة، سائق مجنون! ومازال الأب مستمرا في شتائمه، ولم يعد من الممكن تهدئته. خلف ماكينة الحصاد كان القش الجاف يطير في الهواء، وارتفع التراب. بدأ ڤالتر في السعال، ولم يتوقف عن اللعن، وعاد للسير على الطريق بين الحقول. انتظر، سأريك، تملكه الغضب، حتى إنه بدأ مرة أخرى في الركض، وبدأت رأس الأب تتأرجح بقوة هنا وهناك، إلى الأعلى وإلى الأسفل، مثل رأس رضيع. اقفز، اقفز، أيها الفارس، صرخ في أبيه إلى فوق، عندما يسقط، فسوف يصرخ ركض وركض، حتى سكت العجوز، لكنه بعد ذلك بدأ من جديد في الصراخ، الذي حجب ضوضاء ماكينة الحصاد، وكانت قد بدأت في الابتعاد.

استشاط الأب غضبا، وبصق، ثم بدأ يخدش بأظافره، ويصرخ. انفجر مثل صاروخ ألعاب نارية، وهو يبصق شعاعا ناريا أخيرا، قبل أن يخمد نهائيا، حاول ڤالتر حفظ توازنه، والتماسك

رغم حركات الأب فوق ظهره، مشى بساقين متباعدتين مثل بحّار في جو عاصف، وكان على وشك السقوط على الأرض، واستطاع في اللحظة الأخيرة أن يستند على جذع شجرة كمثرى، وقام بضغط الأب على الجذع، حيث لم يكن هناك أمام العجوز أي مجال ممكن للحركة سوى أن يحرك قدميه وذراعيه فقط بعض الشيء، مثل دمية متحركة الأطراف. توقف ڤالتر لحظة وهو في غاية الإرهاق، أخيرا وجد طريقة يكبح بها الأب، هذا العجوز النافر، وإرجاعه إلى رشده.

لقد بدأ ڤالتر الآن يفهم العاملين في دار الرعاية على نحو أفضل، إنه يفهم الآن غضبهم، غضبهم الرهيب. في هذه اللحظة بصق الأب مرة أخرى، وغرس أسنانه الأمامية والتي مازالت سليمة في جلد رأس الابن، وشد شعراته القليلة المتبقية. ضغط ڤالتر جسد العجوز على جذع شجرة الكمثرى، واستمر في ضغطه، حتى إن الأب لم يستطع التنفس وتوقف أخيرا عن العضّ والبصق، وارتخت يداه وسقطتا إلى أسفل. وابتعد ڤالتر بجسده على جذع شجرة الكمثرى، وبدأ في إكمال سيره، تذمر قليلا، وقال في نفسه؛ قريبا سيهطل المطر. منذ وقت وأنا ملتزم بأن أكون مسالما معك يا أبي، في الماضي كنت أستطيع مقاومة أفعالك، لكني اليوم تزداد خشيتي من أن أصير مثلك. إن ذلك كالقدر، لا يمكن إيقافه، فالحياة تصبح من يوم لآخر أكثر جدية، الآن أعتقد ذلك.

أشعر بالقطرات الأولى من المطر، هل أبدأ العلاقة معها من جديد؟ مع مارا؟ أعتقد أنه من الصعوبة إصلاح ما تم كسره. إنه يعرف ذلك، عندما تبدأ علاقة ما في الانزلاق، عندما يبدأ

كل شـــيء في الانهيار، فعلى المرء في هذه اللحظة أن ينسى هذه العلاقة بالمرة.

ربما في لحظة سعيدة، يبدأ كلام جميل، وتشتعل العواطف، عندما تلتقي العيون. بعد ذلك وبعد نهاية اللقاء، يعود الصراع بينهمـــا كما كان، ويعود كل منهما لدوره القديم، لكنه يفتقدها الآن، مـــاذا حدث فـــي الحقيقة لها؟ إنها تعـــرف من أنا، منذ بدأت علاقتنا، لماذا لم تعد تتحملني؟ ماذا جرى لها؟ لو لم أكن أحبهـــا، لكنت تركتها منذ زمن، لقد كانـــت حياتي معها رائعة بالفعـــل. بداية تعارفنا، واللقـــاءات الأولى الجميلة، وأحاديثنا التي كانت تمتد لســـاعات طويلة، في نزهاتنا في الجبال، كنا نحس أنفسنا خفافا ونحن هناك في الأعلى فوق قمم الجبال، وكان التقاء جســـدينا وروحينا يجسد قمة الحب، لماذا وفجأة يضيـــع كل هذا؟ هل أصابكِ الجنون يـــا مارا؟ الآن بدأ يهطل المطر فعلا، اندفعت قطـــرات المطر الأولى الثقيلة فوق أوراق الشـــجر وكأنها طلقات رصاص صغيرة. فقط بعد عدة مئات من الأمتار وفـــي المنحدر، ضرب البرق شـــجرة بقوة، محدثا ضجة شـــديدة. والآن هطل المطـــر، وكأن الغيوم قذفت كل ما تحمله من ماء في ثانية واحدة!

ريـــح صاخبة عصفت بُذرى الأشـــجار، وقذفـــت فالتر وأباه بالمطـــر في وجهيهما، الماء البارد شـــيء جميـــل، أليس كذلك يا أبـــي؟ إنه ينعش الـــروح، ويمنح الطاقة، فلننطلق، ونشـــد أزرنا، ونشـــحذ عزيمتنا، كما علمتني دائما، يجب أن تكون صلبا: هيا، يا حصاني الصغير، اركض، اركض. أخرج فالتر لســـانه وامتص قطرات المياه عبر الشـــفاه، قميصه وبنطاله صارا مبللين بالماء،

إنه يستمتع بالبرودة، ومضات البرق جعلته منفعلا، وبدأ يصرخ في الرعد، محاولا حجب صوته، والابن المعاق كان مازال يقف شبه منتصب، بركبتين مضمومتين، وقد تشبث بيد في جذع شجرة الشرد، وبالأخرى استند على عصاه، لو يراه فقط سائق سيارة، من السيارات التي تمر!

شعر بقطرة الماء الأولى على يده، وغمر المكان برقٌ بضوء أزرق وهّاج. ضربات الرعد القوية التي تلت ذلك البرق مباشرة أصابته بالفزع، حتى إن عضلاته توترت وبدأت في الارتعاش، الريح القوية قذفت ماء المطر الثقيل في كل اتجاه، وفي لمح البصر صار مبللا بالماء تماما، بدأ مرة أخرى في الصياح، وفي أثناء ذلك مرت عدة سيارات مسرعة أمام البيت.

يجب أن ينتبه أي شخص لوجوده. صرخ بكل ما استطاع من قوة، وفجأة رأى خلال المطر المنهمر الثقيل، رأى نورا لكشافَي ضوء كبيرين، وفي ذات الوقت سمع صوت محرك ماكينة حصاد، تقترب منه في المنحنى. لم يعد قادرا على الوقوف على قدميه، وتشنجت عضلات ساقيه مسببة له الألم، اقتربت ماكينة الحصاد، وفي ضوئها رأى قطرات المطر تقفز فوق الإسفلت، كانت تلمع مثل اللؤلؤ، لقد كانت كرات ثلج صغيرة، وبالفعل مسَّ نورُ كشاف الضوء الأول مكان الكراج، كانت الماكينة العملاقة أعرض من نصف الشارع، لذا كان يرافقها جرار في المقدمة بكشافات تحذير تومض وميضا متقطعا. حاول أن يقف مستقيما، وتشبثت أصابعه بكل قوة بفروع الشجر؛ إنها الآن فرصته، لأنهما يسيران ببطء، والمكان أصبح مضاء بالكامل من خلال كشافات الضوء الكبيرة، كان يجب أن يروه!

في هـــذه اللحظة اندلع برق قوي مرة أخرى، ولبرهة قصيرة أصبح كل شيء ساطعا، ثم تلت البرق فرقعة عنيفة، والأخ المعاق أصيـــب بالفزع بشـــدة، اضطر معها لترك فروع الشـــجر، وفقد توازنـــه، وانهار ببطء على الأرض، وســـقط في عرض الشـــارع على الإســـفلت، حيث شعرت يداه بكرات الثلج الصغيرة الباردة، وهنا رآه ســـائق ماكينة الحصاد فجأة، فأوقف مركبته، وأعطى إشـــارة إلى ســـائق الجرار، بعدها نزل من كابينة القيادة، وكانت كـــرات الثلج الصغيرة تقفز مرتدة فـــوق صفيح الماكينة المعدني، متناثرة في كل جانب، ترك الســـائق درجات الســـلم الأخيرة في الماكينة وقفز فوق الإسفلت المغطى بكرات الثلج البيضاء، واتجه مع ســـائق الجرار إلى الابن الأصغـــر المعاق الراقد على الأرض، وسأله ماذا حدث؟!

بعدهـــا حـــاول الرجلان رفعه إلى أعلى، ولم يكن هذا شـــيئا ســـهلا، لأنهما لم يعتـــادا التعامل مـــع المعاقين، بـــذلا قصارى جهدهما، وكانا شديدي الحرص، يتعاملان معه مثل بيضة نيئة، لم يعرفا من أين ينبغي الإمســـاك به، وفـــي النهاية قاما بحمله مثل مصاب بجـــروح خطيرة إلى الدرجات الأخيرة من الســـلم، وسألاه: لماذا لم تتصل هاتفيا بالنجدة؟ وعندما سمعا بما حدث قامـــا أحدهما بالاتصـــال من تليفونه المحمول بالإســـعاف على الفـــور، قبل أن يتجها إلى مـــكان الأم داخل البيت. ظلّ ســـائق الجرار جالســـا على الأرض بجانب الابن فـــوق الدرجة الأخيرة من السلم، ووضع ســـترته فوق كتفيه ليحميه من المطر، وهمس قائلا: ســـوف يصير كل شيء على ما يرام. في هذه اللحظة عاد ســـائق ماكينة الحصاد، وقال بصوت خافت لزميله، إنه لم يجد

أي علامة للحياة، ولكنه لا يستطيع أن يجزم بذلك بالضبط، فهو في النهاية ليس متخصصا، الطبيب وحده هو الذي يستطيع أن يقرر ذلك.

سمع الابن المعاق هذه الكلمات، وبدت وكأنها لا تخصه، ولبرهة قصيرة ظل الرجال الثلاثة في حالة تردد.. قال سائق الجرار: يجب أن نحمله إلى داخل المنزل، لكن علينا أولا أن نقوم بركن ماكينة الحصاد إلى جانب الشارع، لأنها تعيق حركة المرور، سنعود حالا. نظر الأخ الأصغر إلى يديه المجروحتين، وإلى الدم، الذي يقطر منها سريعا وممزوجا بالماء فوق جلده وساقطا على الأرض. يبدو أن الأم قد ماتت بالفعل، قال في نفسه، لكنها كانت قد نادته، ربما كانت تلك هي صرخة الموت؟ أم يبدو أنه كان مخطئا؟ لم تعد السماء تمطر كرات ثلج، لكن الأمطار مازالت تهطل بغزارة، عاد الرجلان وقاما بمساعدته للوقوف على ساقيه، أحدهما أمسكه من تحت إبطيه والآخر أمسكه من قدميه، وبعد عدة محاولات نجحا في أن يقف بجانب السور. لو استطعتما أخذ يدي اليمنى فسأكون في الوضع الذي يسمح لي بأن أمشي، من فضلكما، ليس بسرعة، وبخاصة فوق الدرج، فأنا يلزمني بعض الوقت، حتى أقوم برفع القدمين. كلا، أنا لست في الحقيقة مشلولا، أنا أعاني من الاضطراب الحركي، نعم منذ ولادتي، كلا، وإلا ما كنت في حاجة للمساعدة، يكفي لو أمسكت يدي بقوة كي أستطيع أن أستند.

ها هو برقٌ آخر يندلع، بعده مباشرة ضرب الرعد، والأخ الأصغر ينهار ويسقط على ركبتيه، والرجلان يحاولان مساعدته، والآن قاما بإسناده أيضا من الخلف، لكن ذلك يقيده ويسلب

حريته الضرورية في الحركة، لم يسمعا ما قاله لهما بالمرة، وكانا مدفوعين برغبتهما في المساعدة. ومرة أخرى ضرب الرعد بقوة، وهنا قال سـائق ماكينة الحصاد، يحتمل أن يكون هذا البرق قد ضـرب بركة المـاء القريبة. وانزلق الابن المعاق من فوق سـلالم الدرج المبللة إلى أسفل، لكن سائق الجرار قام بمسك يده ورفعه عاليا. لا يمكن أن نسـتمر هكـذا، علينا حمله. لا، اتركاني، قال الأخ الأصغر الذي اسـتند الآن ثانية على السور، لو في إمكاني أن أهدأ لحظة واحدة، لتمكنت من التحرك وحدي.

كانت الأم قد ماتت، كانت ممدة على سـريرها، آمل أن يكون الرجل قد قام بتغطيتها، لقد كان يخشـى مـن رؤية الأم الميتة، ومـرة أخرى ضرب الرعد بعنف، نحن نوجد في مركز العاصفة الرعدية، قال سـائق ماكينة الحصاد، والابن الأصغر كان يشعر مع الوقت بالتوتر الشـديد، وكيف أنه أصبح عاجزا عن تحريك قدميه، وكيف أنه يندفع واقعا على ركبتيه.

إلى الأمام، كان الأب يصيح في الماضي في مثل هذه المواقف، إلى الأمام، تماسك! لكن الآن لم يعد هناك من يحفزه ويشجعه، وكان الرجلان قد وقفا في حالة عجز تامة من حوله.

وهنا قرر سـائق ماكينة الحصاد الإمسـاك بالابن من تحت ذراعيه، في حين قبض الآخر على قدميه وحملاه معا إلى داخل المنزل. والآن بدأ ڤالتر رغم المطر في الصعود الأخير، كان عليه أن ينحني بعض الشيء إلى الأمام، كيلا يفقد توازنه. وبحذر كان يضع قدما قبل الأخرى كيلا ينزلق، لكن الأب الجالس فوق ظهر الابن المنحني، لم يهدأ وأصبح عصبيا، وتأرجح بكل جسـده هنا وهنـاك، ولوح بذراعيه في الهواء. هل تسـتطيع أن تتوقف؟ إن

الأمر خطير، فالطريق يتجه بنا إلى الأعلى بشكل حاد. بفضل ومضات البرق المتتالية، والتي أضاءت المكان لجزء من الثانية، استطاع ڤالتر أن يوجّه نفسه إلى الطريق الصحيح. لن نستسلم، صرخ في أبيه، من يبدأ الطريق عليه أن يكمله، لقد تعلمت ذلك منك مبكرا، فقط لا تتعلل بالتعب، أمسك نفسك جيدا، الرأس للأسفل، وهيا بنا!

سائق ماكينة الحصاد وزميله كانا يريدان وضع الابن الأصغر المعاق على كرسيه المتحرك بجانب المدخل، لكن عضلات جسده تشنجت، ولم يتمكنا من وضعه على الكرسي. وقف صلبا كلوح من خشب بين الرجلين وكأنه منوم مغناطيسيا، والرجلان صارا مرة أخرى مترددين، هل ينبغي عليهما وضعه على الأرض؟ إنه يريد بالتأكيد الاتجاه إلى غرفة أمه، أجل، وبكل سرور، أجابهما بأدب عندما سألاه.

في الحقيقة، لم يرد هو ذلك، لقد كان خائفا، وقلقا من لقاء الأم، كان الموت يبدو بالنسبة له وكأنه مرضٌ معد. هل ينبغي حملك ووضعك على السرير؟ لكن جسده ظل كلوح خشب، لم يزل غير قادر على الحركة. ربما يجب أن نضعك بجانب الأم على الأرض؟ ولكن هذا لا يصح، قال سائق الجرار متذمرا، إنه لشيء مهين بالنسبة للشاب. كان جسد الابن الصلب ثقيلا على الرجلين القويين، وبقيا برهة قصيرة مترددين، بعدها قاما بحمله ووضعه بجانب الأم على السرير العريض. جامدا، رقد الابن الأصغر بجانب الجسد الميت، كان حريصا على ألا يلمس الأم، على ألا ينظر إليها، وثبّت عينيه في سقف الغرفة. الآن ستأتي الإسعاف بالتأكيد، ربما وصلت بالفعل، سأذهب للاطمئنان.

ســـائق الجرار كان يعتقد أنه ينبغـــي جسّ نبض الأم مرة أخرى، أنا أرى أنه لم تعد هناك أي حركة في جســـدها، يؤسفني، أنا لا أشعر بشيء، ولكن كما قلت: أنا لست طبيبا.

هكذا، قال الابن الأصغر، والذي مازال مثّبتا نظراته في سقف الغرفة، لم يعـــد هناك نبض، وضرب الرعد مـــرة أخرى، وكأن قذيفة مدفع ضربت الحديقـــة، والابن الأصغر جفل فجأة وبدأ في الارتعاش، ونظر الرجلان لبعضهما في حيرة مرة أخرى، لكن الشاب الذي كان اصطكاك أسنانه مسموعا، حاول تهدئتهما: لا بأس، لقد حدث لي ذلك قبل الآن، لكنه منذ زمن طويل على أي حال. عندما كنت صغيـــرا، كنت في الثانية أو الثالثة من العمر، كما حكوا لي فيما بعد، أيقظني قصف رعد رهيب، وبدأت أيضا في الارتعاش، ولم يعرف الوالدان كيف يمكن مســـاعدتي، وقاما بضمّي، ومسحا باليد فوق رأسي وطمأناني، ولكن الطبيب الذي كان قـــد وصل، رأى أن الوضع ليس ســـيئا، وســـيزول مع مرور الوقت.

عليكما ألا تنزعجا، قال الابن متلعثما للرجلين. لكن انتفاضه وارتعاشه زاد حدة، وارتجّ جسده بقوة بجانب جسد الأم الهامد، حتى اهتز السرير كله بشدة، وبدأت أيضا جثة الأم على الفراش في التأرجح. إنه يعاني من صدمة، هنا صرخ ســـائق الجرار، إن هذا شـــيء خطير، قلبه يمكن أن يصـــاب بالإجهاد! ربما ينبغي علينا أن نضـــع فوطة مبللة فوق جبينـــه. والآخر جلس بجانبه، ووضع يده مهدئا فوق صدره المرتعش. عاد سائق الجرار بقطعة قماش مبللة من غرفة الحمام ووضعها فوق جبين الشاب. هكذا ســـتحس بالراحة حالا، والآن صار سماع صفارات إنذار سيارة

الإسعاف المقتربة ممكنا، لقد استغرق ذلك وقتا طويلا، قال سائق ماكينة الحصاد لرجال الإسعاف والطبيب، أعتقد أنه لم يعد هناك شيء يمكن عمله للمرأة العجوز، من الأفضل الاهتمام بالابن، إنه يعاني من نوبة تشنج، لم أر مثل هذا في حياتي أبدا!

كان ڤالتر يلهث من التعب، وتوقف لحظة قصيرة كي يسترد أنفاسه، وفجأة سمع رنين هاتفه النقال؛ إنها مارا! ظنّ ذلك في سعادة، وأخرج الجهاز من جيب البنطال، لكنها لم تكن مارا، بل كان سائق ماكينة الحصاد، وقد قام بوصف الأحداث له بكلمات غير واضحة، لم يفهم ڤالتر عن أي شيء يتكلم، وكان عليه الاستفسار منه. لا تقلق بشأن نوبة التشنج التي أصابت أخاك، نعم، الإسعاف أيضا هنا، والموقف تحت السيطرة، إنه يعاني من صدمة بسبب الموت المفاجئ للأم. ماذا؟ صاح الابن الأكبر، من الذي مات؟! وفجأة غنى الأب أغنية «اقفز، اقفز، أيها الفارس»، وبدأ في التحرك إلى الأمام وإلى الخلف، من الذي مات؟ سأل ڤالتر مرة أخرى، الأم؟ مازال الأب يتأرجح هنا وهناك وبحركة أسرع، وبدأ يصيح بصوت أعلى: اقفز، اقفز، أيها الفارس. هذه المرة فقد ڤالتر توازنه، وسقط إلى الخلف، على ظهره، على أبيه، وعند الاصطدام شعر ڤالتر بجسد أبيه النحيل، بعظامه. وانزلقا معا عدة أمتار بشكل حاد إلى الأسفل، في الممر الزلق المنحدر. قال ڤالتر في نفسه أثناء السقوط كان عليّ أن أسير في الطريق الآخر. بقيا راقدين في الأسفل عند الجرف المنحدر بجانب سياج الأبقار، وأضاء برقٌ قويّ المنحدر، ورأى ڤالتر، أنهما قد سقطا بين بقرتين، ڤالتر نفسه لم يشعر بأي ألم، وكان يأمل ألا يكون قد حدث للأب شيء، فقد كانت السقطة

قويـــة بالفعل. نهض ڤالتر وقام بنـــداء أبيه، لكن الأخير لم يردّ، أيضا عندما قام بهز ساقيّ الأب، ظل الأب خامدا، وتراخت يداه إلى أســـفل. أبي! صرخ ڤالتر، أبي! قام بعدها بفك حزام حقيبة الظهـــر، وأنزل الأب من فوق ظهــره، وحاول وضعه بحرص على الأرض، لكـــن الأب كان منهارا ولم يظهر أي علامة من علامات الحياة، لقد كُسر عُنقه عند السقوط على الأرض!.. وبينما يغلق ڤالتر عينـــي الأب، أحس بأنفاس دافئة في رقبته، ونفخة عالية الصوت، وإذا به يلتفت إلى الوراء، فرأى رأســـا داكنا كبيرا لبقرة متطفلة، واشـــتم الرائحة الحادة لجلدها المبلل، والآن فقط سمع صوت ســـائق ماكينة الحصاد قادما من التليفـــون النقال المُلقى بجانبه على الأرض: مرحبا؟ هل كل شيء على ما يرام؟

قام ڤالتر بالرد، وســـأله عن حال أخيـــه، وأخبره بأنه ينبغي عدم نقله إلى المستشفى، وعلى الطبيب أن يحقنه بحقنة مهدئة، وســـوف يهدأ. أنا ســـوف أحضر على وجه السرعة، أعتقد في غضون ساعة سأصل للبيت..

أوقف تشـــغيل هاتفه النقال، وأعاده إلى جيب البنطال. يجب أن أذهب إلى أخي، لا أســـتطيع أن أتركه وحـــده مع الأم الميتة، وبحذر رفع جســـد أبيه الميت، لم يكن الأمر ســـهلا، فسرعان ما كانت الجثة تســـقط إلى الأمام، وأخيرا تمكـــن من الدخول في أحزمة حقيبة الظهر، واســـتطاع النهـــوض، كي يهبط بأبيه وهو فوق ظهره من هذا المنحدر.

وأثناء ذلك صار مُحاطا بكثير من الأبقار، ســـمع أنفاســـها، وأحس بخارهـــا الدافئ، لكنها تركته يمشـــي دون تدخل، فقط عندمـــا خرج من دائرتها، بدأ حيوان منها في الخوار. لماذا قمت

بالتصــرف بهذا الشــكل الأخــرق؟ صاح فالتر فــي أبيه الميت، لماذا لم تسمعني؟ لقد أفســد أسلوبك العنيد البغيض كل شيء، أنت نفسك المســؤول عن موتك، فقد كان من الممكن تجنب هذا الســقوط، والآن أدرك فالتر أنه لــم يفقد أباه فقط، ولكنه فقد أمه أيضا، وغامت عيناه بالدموع، ثم بدأ يشهق بصوت مرتفع.

انتهت



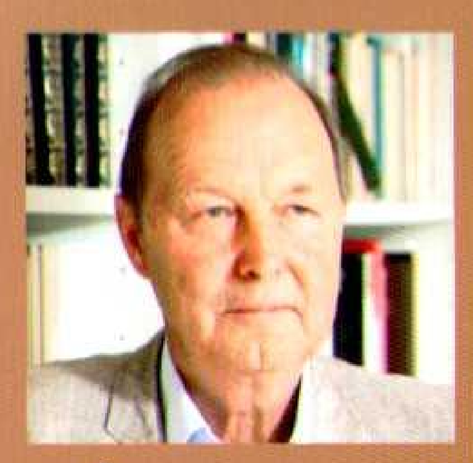
د. عبدالحميد حسين

- من مواليد صعيد مصر عام 1958.
- حاصل على ليسانس الآداب – قسم الدراسات اليونانية واللاتينية – جامعة القاهرة 1980.
- حاصل على ماجستير الفلسفة في علوم المسرح بجامعة فيينا – النمسا 1987.
- حاصل على دكتوراه الفلسفة في علوم المسرح بجامعة فيينا – النمسا 1991.
- لديـه العديد من الترجمـات من اللغة الألمانية في المسـرحيات والقصص القصيرة والمسرح الألماني.
- نشـر كتاب «الأسطورة اليونانية في المسرح العربي المعاصر» باللغة الألمانية في ألمانيا 2004.
- له ديوانا شعر الأول «كتابة على جدار الصمت» – القاهرة 1982، والثاني «أهمية أن تكون حزينا» – تونس 2003.

المراجع في سطور

أ. د. أسامة أبو طالب

- كاتب مصري.
- حاصل على دكتوراه في علوم المسرح من جامعة فيينا.
- تولى العديد من المناصب الشرفية؛ منها عضوية المجلس الأعلى للثقافة – مصر من عام 2000 إلى 2005.
- له عدد من المؤلفات باللغة العربية منها: البطل التراجيدي مسلما 2012.
- له العديد من الترجمات من اللغة الألمانية؛ منها نصوص من المسرح الألماني المعاصر 2002.
- ألقى عددا من المحاضرات باللغتين الألمانية والعربية أهمها: نحو خارطة ثقافية لمصر في المركز الثقافي المصري في فيينا.
- كتب العديد من الدواوين الشعرية من أهمها: الوقوف على أطلال طيبة، ولا أبكي ولا أضحك.
- قام بإعداد وتقديم عدد من البرامج الأدبية والفنية بالتلفزيون والإذاعة منها: مسرح أبو الفنون بقناة التنوير المصرية.
- كتب عدة سيناريوهات سينمائية وتلفزيونية منها: الاحتياط واجب.. فيلم روائي 1982.
- له الكثير من الكتابات الصحافية؛ منها مقال أسبوعي كل يوم أحد بجريدة «الوفد» من 2011 – 2012.
- قام بتأسيس عدد من الدورات والورش التدريبية في فنون العرض.



يورج أكلين

كاتب وروائي سويسري معاصر.. ولد في 20 فبراير 1945.. في مدينة زيورخ بسويسرا، وحاصل على الدكتوراه في علم الاجتماع عام 1974 من جامعة بريمن بألمانيا.

من أهم مؤلفاته روايات «رجل الكانجرو»، «أغنية الضفدع»، «الثقة شيء طيب»، و«الأب».

حصل على عدد من الجوائز الأدبية في ألمانيا وسويسرا، منها جائزة تسوليكر للفن عن مجمل أعماله الأدبية وجائزة مدينة زيورخ للكتاب.

الأب

تعتبر رواية «الأب» للروائي السويسري المعاصر يورج أكلين تسوية حساب الابن مع أبيه عبر رحلة في ذاكرة الابن، والذي يقوم بدراسة عائلية بعين محلل نفساني.

تطرح الرواية - التي لا تخلو من ملامح السيرة الذاتية - العلاقة بين الأب والابن وموضوع الشيخوخة والمرض والعجز. ويعبر المؤلف بشكل مؤثر وقاس وبأسلوب ساخر ولغة تميل إلى لغة كتّاب مسرح العبث، عن قضايا إنسانية واقعية خطيرة، يعاني منها المجتمع الأوروبي المعاصر، منها قضية التصالح مع الذات، ومواجهة الماضي وتعريته دون مواربة، وكذلك محاولة التغلب عليه.

يكتب أكلين نثرا موجعا، يتميز بالجرأة الشديدة، ويقتحم نفسية الابن، ويتوغل فيها، وليس هذا بغريب عن المؤلف الذي يعمل محللا نفسانيا وله عيادة للتحليل النفسي في مدينة زيورخ.

إنه يقدم نموذجا مغايرا للعلاقة بين الأب والابن، يرى فيه القارئ صورة الأب كطاغية مستبد.

تأثير «كافكا» واضح في الرواية، كذلك «إبسن» و«ستريندبرج»، وهناك وصف مكثف ودقيق لسلوك الشخصيات القليلة في الرواية.

وتختلف التقنية السردية في رواية «الأب» عن الشكل المألوف للرواية من حيث وجود حبكة وبداية ونهاية.

أحداث الرواية تدور في يوم واحد، وتنتمي إلى التيار المعروف في الرواية الحديثة باسم تيار الوعي.

ISBN: 978-99906-0-450-4
رقم الإيداع: 213/2015

